الطبعة
٢

رواية

كما أنتِ

نورالدين سليمان

كما أنتِ

اسم الكتاب:	كما أنتِ
الكاتب:	نور الدين سليمان
رسم الغلاف:	ريم تويّم
ترقيم الصفحات:	١٤٩
رقم الطبعة:	الطبعة الثانية ٢٠٢١
الناشر:	مكتبة النور
	سوريا - إدلب - شارع الجلاء
	☎ 023 239 630
	0966 820 157

جميع الحقوق محفوظة

يمنع نشر أو طباعة أو اقتباس أي جزء من الكتاب

دون إذن خطي من الناشر

كما أنتِ

رواية

نور الدين سليمان

٢٠١٩

الإهداء:

إلى طيفكِ الذي سهر الليالي بجواري أثناء كتابتي ولم يفارقني البتّة..

(١)

الرواية طريقة الكاتب في أن يعيش مرة ثانية
قصة أحبها.. وطريقته في منح الخلود لمن أحب
أحلام مستغانمي

أمسك قلمي بيدي كجندي ظل متمسكاً بعلم بلاده وهو ينزف في أرض المعركة ويأبى إفلاته حتى آخر قطرة من دمه.. ورقة جديدة أمامي بعد المئات من الأوراق الممزقة وأنا أحاول، أحاول فقط منحكِ خلوداً بين أوراقي، ولكنني لست أعرف ما يُكتب في امرأة هي في حد ذاتها رواية.. لست أعرف ما يُكتب في امرأة جبارة تمكنت من جمع أعظم ضدين في العالم، الأبيض والأسود، داخل عينيها..

كيف لي أن أقدر على وصف قمر شبيهه الوحيد يسبح بعيداً في الفضاء!؟

أنظر للقمر لعلّي أستلهم منه بعضاً من ملامحك فأكتبها، فتسرع غيمة كبيرة بحجبه عني وتقول:

"يرفض (قمر) أن تراه،(فالقمر) الوحيد لا يضاهي بفتنته أيّ جرمٍ سماوي آخر".. قمرٌ هو، والقمر أنتِ.

حروف اللغة لا تقدر على اختصارك في رواية، ولا حتى في مجلدات..

لو أنكِ معشوقة "قيس بن الملوح" وهو مجنونكِ، لاكتفى بالموت جنوناً قبل أن يتمكن من كتابتكِ ولو ببيتِ قصيدة واحد..

لو أنكِ محبوبة "عنترة العبسيّ" لما استطاع نزع صورتك من رأسه وهو يسطّر بطولات في أرض المعركة؛ أقسم أنه كان سيُقتل من أول موقعةٍ خاضها وهو مشتت الذهن..

لو عاصركِ الشعراء الجاهليون لما اكتفوا بكتابة عشر معلّقاتٍ فقط، ولكانت أستار الكعبة الآن محاكةٌ من ألف قصيدة مطلعها: "الوقوف على أطلال عينيكِ".

أبحرتُ على متنكِ وأنا كلي ثقة في أن أرسوَ على شطّ الاستقرار بسلام.. لم تنقضِ نصف المسافة حتى خنتِ ثقتي يا منبع صدقي.. ثقبٌ صغير كان السبب في بداية هذا الحطام.. فجوة صغيرة أغرقتكِ أنتِ و رمت بي إلى بحر الضلال يا كل إيماني.

أهلكتني الأمواج يا سفينتي وأنا وحدي بينها أتخبط مصارعاً غرقي.. قُذفت على شـــط جزيرة مهجورة، وبين مدّ كان طيفكِ وجذر كان تلاشـــيه، أفقت من غيبوبتي لأجد نفســـي وحيداً.. أبحث في الأفق حيث يتلاقى الأزرقان عســـاي أجد أثراً لســـفينتي المحطمة، ولو أنني وجدت لقذفتُ نفســـي من جديد بين أحضـــان الموج ذاته الذي أنهكني.. لسبحتُ ضارباً يداي بكل ما أوتيت من حب على أمل في الوصـــول إليكِ، وتمســـكي ولو بخشـــبة وحيدة منكِ تطفو على سطح الذكريات.

وحدي أتألم في جزيرتي المهجورة يا مدينتي، أجلس أسفل شجرة لم تكن ذاتها التي نقشـــنا حروف أسمائنا على جذعها.. وهناك بين الأدغال يتراءى لناظري سراب عينيكِ فأسرع راكضاً نحوه كتائهٍ في الصحراء يكاد العطش يجتثُّ روحه ليدرك في النهاية أن تلك الواحة لم تكن سوى مجرد سراب؛ فيخفق قلبي ألماً وتفيض عيناي قهراً.

عيناي لم تعد كما أحببتِها أنتِ يا ذات العيون الســـوداء.. باتت عيناي تتوسط هالة تزداد ظلمةً كلما أدركتها الأيام وشمسكِ غائبة عن أفقي.

وحيداً أمشـــي في أطراف تلك الجزيرة ولا أقدر على التأقلم مع أماكنها.. ألســـتُ أنا من أخبرك أنك موطني الوحيد وبُعدكِ هو الغربة يا "ليلك" ؟

أشـــاهد عرّافة عجوزاً تجلس بعيداً عني بقليل على رصـــيف الوهم، أســـير ناحيتها لعلّي أجد عندها ما يروي ظمئي، فكلّ تجعيدة في وجهها كانت تقرّ على أنها تطوي فصـــلاً من كتاب حياتها.. أقفُ قبالتها فيلفتها ضعفي وقلة حيلتي، تمسك يدي لتتكهّن مستقبلي، فتخبرني أنها لم ترَ شيئاً إلا السواد.. أضفت للقصيدة بيتاً وأخبرتها عن ســرّ الظلام الذي يعشّــش داخلي؛ أخبرتها أنه ســحر عينيكِ الأسود الذي بثّته في شراييني منذ أول لقاء، فختمت هي القصيدة بآه وحسرة على ضياع عمرٍ من ذلك الشاب.

أكتم آهات في صدري يتراوح صداها في أرجاء رأسي، فأصاب بالإغماء وأنا على قيد اليقظة..

قلبي لم يرتوِ من حكايات حبكِ بعد يا "شهرزادي"، ما ذنب قلبٍ ليتأ لم إذ أن ملكته لم تُضف للألف حكاية حكايتين أُخر؟.. "ألف ليلة وليلة" مرّت، وربما أكثر، ومازالت فاجعتي بكِ تعتصـــر فؤادي كما لو أنها بدأت بالأمس..

قتلتني بفراقك، أكتب لكِ الآن وأنا ميت منكِ على فراش الغياب وحزني يكفنني.

لا أقدر على الاســـتســـلام أمام حبي، فلا زال الجندي في داخلي يصـــيح باسمك كما لو أنه نشـــيد وطني؛ لا زال الجندي في داخلي

متشـــبثاً بطيفك يا وطني، ما زال يرفض الهجران رغم قســـوة وطنه عليه..

كلما حاولت انتزاعك من أعماقي لامسَت أناملي ثنايا قلبي الممزق فتزداد جروحي جروحاً أكثر.. كُسـر قلبي ثم أعاد الله ترميمه، ولكن أين يكمن الجمال في لوحة متصدعة؟

فشـلتُ في دفن حبك داخلي يا "ليلك" لأنني لم أعثر على الجثمان مطلقاً، فأيقنتُ أن حبكِ لم يمت، وأنني ما زلت أضـــعف من أن أدفنه.. رضيتُ ببناء تمثال لك في قلبي وسأواصل تلميعه بدموعي..

أعلنت هزيمتي يا ليلك، رفعت راياتي البيضاء أمام ضعفي فما زلتُ أضعف من أن أتخلص منكِ.

لا أدري أيّة معركة من اللواتي خضـــتها معك قد جعلت من قلبي أسيراً بين يديكِ، ولكنني أعلم في هذه اللحظة ورغم كل شيء أنني ما زلت أحبكِ..

لا أدري إذا مـا كنـتُ مخيراً في حزني هـذا لأن الله أخـذك مني دون ســـابق إنذار أم أنه يجب عليّ الرضـــى لأنه بذلك يختبر صـــبري، ولكنني فقدت اتجاهات السعادة، وأصبحت روحي تنجذب للحزن رغماً عني.

أتاني خريف الفراق فأســقطَ جميع الأوراق من أشــجار قلبي، أتاني خريف الفراق لترميكِ نسـماته القاسـية بعيداً عني، إلى عالمٍ لا أقدر

على العبور إليه.. حياتي ابيضّت مقلتاها فباتت لا تبصر شيئاً مذ فارقتها عيناكِ؛ وذلك السواد وحده من كان بصري وبصيرتي يا ليلك..

كل ما أريده الآن هو قربك، أدرك أن ما أريده بعيد ومستحيل، ولكنني أحتاجكِ بشدة.. أتضور جوعاً ولن يسدَّ جوعي سوى عناق وحيد منكِ، عناق يخمد نيران الشوق في داخلي.. عناق سينسيني هذا الخراب والدمار، وعناق يعيد ما هدمه الفراق.. مريضٌ بكِ وليس ثمّة دواء في هذا الكون يقدر على شفائي إلا السحر الأسود في عينيكِ؛ ظمآن والخمر الوحيد الذي يرويني قد استُهلك حتى آخر قطرة..

دُمرت أكواخ السعادة في قلبي، وأشجار الحب سيقت مع الطوفان.. لا يسعُني أن أقول أكثر من هذا يا ليلك، لا يسعني أن أقول سوى قدّر الله وما شاء فعل، وليغفر لك على ما فعلتِ..

أغفر لكِ ما بثّيتِ من سمّ في قلبي، أغفر لك عدد كل خلية قتلتها في داخلي، أغفر لك عدد كل دمعة ذرفتُها على هجرك..

أغفر لكِ لأنني كنت وما زلت وسأبقى أحبكِ كما أنتِ..

* * *

تتعجبين كثيراً من شدة تعلقي في وطننا الذي هجره معظم الرجال الذين هم في سنّي، تسألينني: "لماذا لا تهاجر؟".

ــ وهل سأقدر على العيش من دون عينيكِ؟

ــ أتكلم بجدية، مستقبلك في الخارج وليس في هذه البلاد.

ــ لنفرض أنني وافقت، هل ستقدرين على العيش من دوني يا ليلك؟

ــ بالطبع لا، ولكنه مستقبلك في النهاية.. حلمك الذي لطالما حلمت به لا قدرة لك على تحقيقه في بلد قد أكلت منه الحرب ثمان سنوات.. أقسم وتعلم أنني لن أكون سعيدة في حال غيابك فقربك ما يمنحني الحياة؛ لكن في ذات الوقت لا قدرة لي على رؤيتك ترفض كل فرصة تتاح لك من أجل السفر.

ــ ولمَ تفعلين ذلك؟

ــ بصراحة، أشعر أحياناً أنني السبب، ولا أطيق تصديق ذلك.

ــ لماذا تحملين نفسك مسؤولية شيء لا يمسّك بصلة؟ إنّ قربكِ مني هو طريق مستقبلي، وابتعادك هو الغربة يا ليلك.

ــ أعرف أعرف، ولكن .....

ــ أخبرتكِ سابقاً عن سفري السنة الماضية إلى "تركيا" لبناء مستقبلي كما زعمت، ولكنني عدت في النهاية بعدما أحسست بنار الغربة تكوي فؤادي، وحينها ما كنتِ في حياتي لأقول أنك السبب.

ــ آه ولله! .. على أســـاس ما بتســـافر لأن ما عندك قدرة على فراقي!؟ لا تكذب في المرة القادرة وتخبرني أنك لا تحتمل العيش من دوني، واعترف بأنّ حبك لتلك الغابة هو السبب.

تنحيتِ عابســة وبدأت العبث بخصــلة من شــعركِ ســقطت على وجهك، فحجبَت تلك الخصلة جزءاً من ذلك البدر.

ــ ريتو يســـلملي الزعلان.. لا تحزني وكفي عن العبـث بتلـك الخصلة فأنا لا أحتمل رؤية وجهكِ أحدباً.

ــ نعم ! أنا وجهي أحدب!؟ ستندم على هذا التشبيه يا طارق.

وقفتِ وهممتِ بالمغادرة، أمسكت يدكِ وقبلتها وقلت:

ــ ظننتها ذماً يا عزيزتي؟

ــ أفلت يدي و دعني أذهب.

ــ ولكنها ليست كذلك، ألا تعلمين ما هو الأحدب؟

ــ شو هوي يا بعدي؟ نوّرنا.

ــ حسـناً، الأحدب هو اسـم يطلق على القمر في مرحلة ما قبل اكتماله بدراً، وعند ســـقوط تلك الخصـــلة على وجهك وحجبها بعضـــاً من تلك المفاتن خُيّل لي أن الســـاعة قد بدأت وبدا القمر بعدها بالتطور عكساً/من بدر إلى أحدب.

ــ يلا اضحك على عقلي بكلمتين حلوين.

ــ وجهكِ قمر وتضاريسه فاتنة، وما يزيده جمالاً هو تلك المجرتين السـوداوين اللتين تخبئان خلفهما أكواناً زاهية كقوس قزح، أنت هكذا فاتنة بطباقك، صدقيني أنا لا أبالغ.

ارتسمت على وجهكِ أمارات الرضا وأدرتِ به نحوي.

ــ حسناً حسناً.. أكمل.

ــ أكذب عليك إن قلت لكِ أن سبب بقائي الوحيد هو أنت، ولكنك السبب الأهم يا ليلك.. من دونك لا أطيق وطناً، ومعكِ قد أعشق الغربة.. لا تغاري من ذلك فأنا أحبكما أنتما الاثنان وأريدكما في حياتي معاً لتكتمل؛ تربطني بكما علاقة واحدة كالشاي والسكر، فالشاي مرّ كالزقوم ولا يُحلى إلا بحضرة السكر.. وطني الشاي وأنتِ السكر وأنا المدمن.

ــ اممم، لم أقتنع بمثالك هذا لأنك لا تحب الشاي.

ــ ولكنه مقنع! ليكون بدك اضربلك المثال عالقهوة لتقتنعي؟

ضحكتِ فلمعت عيناكِ وقلتِ:

ــ أدرك أنك تحبها "سادة" يا مثقف، وأعلم أنك تبغض الذين يقتلون حلاوة مرها بالسكر.

ــ حسناً إذن...

ـ لا تكمل فقد اقتنعت، إلهي أي أســـلوب تمتلكه بالإقناع يا طارق!

* * *

تخبرينني دوماً أنكِ معجبة بأســـلوبي في الإقناع وبأفكاري التي أعتقدها وبأمثلتي التي أقدمها لكِ إذا واجهتكِ صعوبة على فهم أمر ما.. أذكر بكاؤك طويلاً ذات مســـاء حينما كنتِ مســـتجدة في الجامعة وغير قادرة على دراســـة مادة لا أذكر اسمها.. كنتِ تبكين بشـــدة يا ليلك، اتصـــلتِ بي وبدأتِ بالنحيب والشـــتم على اليوم الذي دخلتِ به كلية "الهندســـة المعمارية".. هدأتُ من روعكِ وقضيت حوالي الساعة والنصف وأنا أضرب لك من تلك الأمثلة وأرغبكِ على دراســـة تلك المادة؛ ختمتُ محاضـــرتي قائلاً: "انظري لنفســـكِ في المرآة، تحدي المرأة التي في داخلكِ وقولي لها (أنا أستطيع)".

اقتنعتِ يومها بما قلت ونطقتِ: "أحبك يا قمري"؛ مرفقةً بتنهيدة ما بعد البكاء كجزاء لي على تشجيعي لك، وما أعظمها من هدية لقلبي.. ما زلتُ أذكر فرحتك يوم صدور النتائج..

ـ طاااارق..

ـ عيون طارق!

ـ ناجحة، والله ناجحة!

حضنتني في الحرم الجامعي على مرأى من عيون الطلاب:

ــ كله بفضــلك فأنتَ من أعطاني الأمل على دراســة ذاك المقرر اللعين.

ــ لكنكِ أنتِ من درست وتعبت، الفضل لكِ حبيبتي.

قلتِ وأنتِ تقفزين فرحاً:

ــ يقبرني المتواضع.

وقعت أعيننا على الطلاب وهم ينظرون إلينا ويبتســمون من حولنا، ضحكنا بخجل وتراجعنا إلى الخلف خطوة بخطوة.

ــ خلينا نشرب شاي بهي المناسبة الحلوة، فأنتَ بحاجة لأن تودع كل مكان من الجامعة لأنك في سنتك الدراسية الأخيرة ولن أسمح لك بدخول "الكافتيريا" لوحدك.

ــ حسناً حسناً، ولكن بشرط.

ــ ما هو ؟

ــ أريد قهوة.

ــ شاي.

ــ ولكنني لا ....

ــ شاااي!

ــ كما تريدين ... شاي.

هممنا بالسير وأنا أفكر في سري، كيف انقضت أربع سنوات من عمري في هذه الجامعة! شعرتُ بشيءٍ من الحزن فقد قضيتُ بها أمتع أوقاتي، ونصف ذكرياتي خُلقت خلف أسوارها ولكن، على أية حال، ما زال هناك فصلٌ دراسي آخر..

* * *

(٢)

إلى ذكرى أحاديثنا في ذلك

الشتاء،

عند الرابعة فجراً..

غيوم ميسو

سـنة مرت على فراقنا، وما زال الطفل في داخلي يبكيكِ كلما هبّت ريح الذكرى، والمؤلم أنها لم تسـكن يوماً لتهبّ من جديد.. المؤلم أن ريح ذكراكِ تستحيل أعاصيراً مع مرور الأيام، فتكاد تقتلع قلبي من شدة عصفها..

سنة مضت على فراقنا وكلما أوشكَت أنهار دموعي على الجفاف غيّم طيفكِ فوقها وشـرع مطرك بالهطول عليها ليغذيها من جديد، فتذرفهما عيناي قهراً، أنا الذي لطالما عشـق عينيكِ ولم يبكيهما يوماً..

غيابكِ قاسٍ يا ليلك، قاسٍ لدرجة أنه يكاد أن يفتك بي، وينتشل روحي من هذه الجثة.. لم تعد فكرة الموت ما تخيفني، المخيف هو أن أكمل حياتي من دون أن تراكِ عيناي أو يلبسكِ صدري، المخيف هو أن أموت قبل أن أعاودَ التهام العنب من ثغركِ..

صدقيني لم أعد أخشى الموت، فلعنة حبكِ ضربت مشاعري تلك.. الشوق لك أقسى من فكرة الموت يا ليلك؛ فالموت يلتهمنا دفعة واحدة ولكن الشوق يميتنا في الليلة ألف مرة..

أفتقدكِ قطعةً قطعة..

أفتقد غفوة على كتفٍ يغطيه سواد الليل الحالك في شعركِ..

أفتقد حاجبين عريضين كأنهما السيفان اللذان خلقهما الله لتحكمي بهما القصاص على قلبي..

أفتقد أنفاً لطالما أحببت العبث به كلما توسط سبّابتي وإبهامي..

أفتقد حدائق الورد على وجنتيكِ..

أفتقد فماً كلما لامسته شفتاي وابتعدت، صرخت جوارحي: "هل من مزيد!"

أفتقد عينيكِ السوداء يا ليلك، أشتاق لذاك السحر المنبعث منهما.. لم أكن أدرك شيئاً عن عظمة هذا السحر حتى فتكت عيناكِ به قلبي.. أفتقد ذاك السحر يا ليلك، السحر الأسود..

أخبريني أي شـــيء فيكِ لا يُحب وكل قطعةٍ منك تحتاج دهراً كي تُعشـق.. تمضـي أيامي من دونك متثاقلة، وكأنها سـلحفاة قد عوّل الدهر أثقاله على ظهرها فزادها بطئاً.. أخبريني، أين كان خطئي لتعاقبيني بالفراق؟ أين كان خطئي لتقطعي نياط قلبي ببعدكِ عني؟ كنتِ الوحيدة التي سكنت صدري وعششت في كل خلية داخلي، وحدكِ يا ليلك من سرت في عروقي، فصار الشفاء منكِ مستحيلاً وليس شبه مستحيل..

* * *

الخامسة عصراً في مساء ذلك اليوم:

كنت أمارس رياضتي المفضلة بالتجوال في شوارع المدينة صحبة صديقي "كرم".. اعتدنا، أنا وهو، على السير معاً يومياً متذرّعين بالملل الصيفي المعتاد على ذلك الروتين، أو كما نسميه نحن: "رياضة الجري وتفحص وجوه الفتيات"!

الحقيقة هي أنني لا أحبّذ تلك الأشياء مطلقاً كأَنْ أمشي خلف فتاة بالطريق، والسبب لا يكمن بالفضيلة أو أنني أدّعيها، بل على العكس تماماً، فمواصفات الرجل الفاضل لم تكن تنطبق عليّ حينها؛ السبب هو أنني أقوم بوضع نفسي مكان تلك الفتاة وأفكر كما ستفكر.. تباً، لا تروقني تلك الأفكار أبداً! لهذا كنا نتفحص وجوههنّ، نبحلق بهنّ من بعيد فقط!

ـ طارق، تمهل.. لم نذهب للسباق يا رجل.

ـ أسرع، سيبدأ "الكلاسيكو" بعد ساعة.

ـ قلتها أنت، بعد ساعة.. فهناك العديد من الوجوه التي لم ننظر إليها بعد.

قالها كرم مبتسماً.

أجبته ضاحكاً:

ــ وليكن ذلك، لا أريد الاعتياد على هذا أيضاً فيصبح الأمر بالنسبة لي روتيناً مملاً.. وأنت تعرف أنني لا أطيق القيام بأشياء مللتها.

ــ بالمناسبة، أكان هذا السبب في انفصالك عن "سعاد" مؤخراً؟

ــ ومن "لانا" قبلها أيضاً.

ضحكنا طويلاً، وبدأنا رحلة العودة إلى منزلي لمشاهدة المباراة؛ كنا نتحدث في طريقنا، أو كما نسميه، نحلل ونتوقع مجريات المباراة ونشتم الحظ الذي سيجعلنا نشاهد "الكلاسيكو" نهاراً، فقد كنا ننتظره طيلة الشهور الماضية لنستمتع به في سهرتنا، ولكن في النهاية، أصدر "الاتحاد الإسباني" لكرة القدم قراراً ينصُّ على إقامته في السادسة عصراً نظراً للأوضاع السياسية والأمنية غير المستقرة التي يشهدها إقليم "كاتالونيا" وثورة شعبه للانفصال عن "إسبانيا"..

قررنا أن نمر في طريقنا على منزل صديقنا "رامي" لاصطحابه معنا.. رامي شاب ذكي ومهتم بدروسه جداً، يدرس الإرشاد النفسي، وربما لهذا السبب نطلق عليه "معقّد".. ولكن الحقيقة أنه رجل واقعي جداً، يصبُّ جميع اهتماماته بمجال القراءة لتوسيع دائرة معرفته.. لم يكن يخرج معنا كثيراً، بل نادراً ما كنّا نخرج سويَّاً لأنه يقضي معظم أوقاته في المنزل للمذاكرة في أيام الدراسة، وللقراءة والكتابة في أوقات العطلة..

قبل أن نصل لمنزل رامي بخمسة أو ستة أبنية سكنية، قامت الساعة في داخلي.

شاهدت عيناي ما لم تشاهده من قبل، أقل ما يمكن وصفه بملاكٍ يمشي على الأرض.. كنتِ تمشين ومجموعة فتياتٍ حاملةً على كتفك آلة موسيقية داخل حقيبة خُصّصت لها، خمنت من شكلها أنها "كمان".

شعرٌ كأنّه محاكٌ من حرير الجنة..

حاجبان أنيقان صُفَّا بشكلٍ مستقيم كرماة أسهم كانوا على استعداد لخوض معركة مع قلبي..

أنفٌ ناعم كأنوف الوِلدان المخلدون الذين تخيلت ملامحهم يوماً، ولم أرَ مثلها أبداً..

شفاهٌ لو نظر العنب لهما لاحترق غيظاً من شدة احمرارهما..

عينان يمتزج بهما الضدّان، الأسود والأبيض، ممتلئتان بشيءٍ لم أقدر على تفسيره أو إيجاد شبيهٍ لهما..

صوبتِ نظرة تجاهي فشعرت بكياني ينتفض من سحرهما، شعرت بالسحر الأسود يخترق بمساماتي ويمتزج بدمي ليسري في عروقي..

كل هذا لم يتجاوز الخمس عشرة ثانية، شعرت وكأنها خمس عشرة سنة قضيتها في النظر إليكِ.

نظرتِ لي بتعجب وكأنك تقولين في سرّكِ: "ما الذي يحصل لذلك الأبله"؟

تابعتِ سيركِ لتدخلي في المبنى الذي كنت مُسَمَّراً أمامه.. هزني كرم وقال لي باستغراب:

ــماذا دهاك؟ والذي يراك يفكر أنها المرة الأولى التي ترى بها فتاةً جميلة.

ــ أتنعت هذه بالفتاة !؟ إنها ملاك، أقسم أنها سقطت سهواً من السماء.

قال ساخراً:

ــ هيا أخبرني أنها الفتاة التي كنت بانتظار حبها، وأنها الوحيدة التي أعادت النبض لقلبك.

لم أنبس ببنت شفة وظللت شارد الذهن محاولاً إعادة صورة لما رأيت.. أضاف كرم قائلاً:

ــ اووه، نفس السيناريو.. اليوم رأيتها، غداً تكلمها، بعد غد تقابلها.. وفي نهاية المطاف تخبرني بأنها نكدية وتتذرع بكافة الحجج لتنفصل عنها.

لم أجب.

ــ هيه طارق، ما الذي حل بك! هيا سنتأخر على موعد المباراة.

ــ لا أريد الذهاب، سأصعد كي أجلس عند رامي قليلاً، قد يعرف العنوان الذي قصَدَته باعتباره يسكن في نفس الحي.

ــ ولكن المباراة سوف ...

ــ حسمت أمري، أقسم أنني لن أبرح مكاني حتى أراها ثانية، سأصعد لمنزل رامي، إذا أردت رافقني.

أومأ كرم برأسه موافقاً وصعدنا. استقبلنا رامي بقلة حماس كالمعتاد، أخبرنا أنه يعلم سبب قدومنا، ولا رغبة له في مشاهدة المباراة.. قاطعه كرم قائلاً:

ــ خود طريق، صاحبنا عشقان من جديد.

أجابه رامي:

ــ وين الغريب بالموضوع؟ سيدخل موسوعة "غينيس" قريباً.

نظرت إلى رامي وقلت للمرة الأولى:

ــ هل ستستضيفنا أم نذهب لنجلس على الرصيف؟

ــ طبعاً تفضلا، المنزل منزلكما.

طلبت الجلوس على الشرفة متذرعاً بحرارة الطقس في الداخل، الحقيقة أنني أردت مراقبة المكان الذي دخلتِه، فربما تخرجين بعد قليل لأن مظهرك ورفيقاتكِ لا يوحي على أنكن تقطُن هنا، إلا إذا ما كنتنّ طالبات وتستأجرن شقةً سوياً؛ وهذا لا يحصل كثيراً في مدينتنا بالنسبة للفتيات على أية حال.

قام رامي بواجب الضيافة وحضر لنا ثلاثة كؤوس من الشاي، جلس قبالتي وأنا لا أزال شـارد الذهن ولا قدرة لي على تحريك شـفاهي.. نظر لي باستغراب وقال:

ـأراك على غير العادة، فعندما تفكر بفتاة جديدة، جُلَّ ما تفعله هو ترجمة مشاعرك للضحك والسرور، ورسم الخطط والفخاخ لتوقع قلبها في مصيدة الحب!

أجابه كرم:

ـأين تكمن غير العادة تلك؟ أوافق، ربما تكون قد أثَّرت عليه بشكل زائد عن الأخريات، لكن حماسه سيهدأ تدريجياً وسينسى الأمر في نهاية المطاف.

ظلّت شـفاهي مطبقة وعيناي مصـوبة على ذلك المبنى، أسـتمع لشيء في داخلي لا يمكنني وصفه بأكثر من كلمة ضجيج.

انتشلني صوت رامي من تلك اللجة حينما قال:

ـ قد يكون محقاً في هذه المرة، وببسـاطة ما يشـعر به هو حباً.. ألا تراه منطفئ الحماس!

شدني رامي بكلماته، استدرتُ ناحيته وقلت:

ـ اسمع رامي، أعتبرك مثقفاً وتفهم بالأمور الروحية وما شابه، هلّا شخصت حالتي؟ أقسم أنها المرة الأولى التي يجتاحني بها هذا الشعور الذي لا أقدر على وصفه.. كل ما يمكنني إخبارك به أن تلك الفتاة

بعثت ضجيجاً في داخلي، ضجيج مرفوق بخفقان شديد. عندما رأيتها أحسست أن قلبي يخفق في معدتي!

ابتسم رامي ولمعت عيناه فقد أعجبته كلمة مثقف.. وضع كأس الشاي من يده وقال:

ـ إنه الحب.. سأبسط لك الأمور و أروي لك أسطورة قصيرة:

"يعتبر أفلاطون أن الرجال والنساء في بداية الخليقة كانوا مختلفين عما هم عليه اليوم.. كانت هناك فقط كائنات خنثوية ذات جسد واحد وعنق ورأس بوجهين، وكل وجه ينظر في اتجاه مختلف كأنهما مخلوقان ملتصقان أحدهما بالآخر.

كانت تلك المخلوقات تملك عضوين جنسيين مختلفين، وأربعة أرجل وأربعة أذرع..

لكنّ آلهة الإغريق بدأت تشتعل في نفوسهم الغيرة حين رأوا أن مخلوقاً بأربعة أذرع أعظم قدرة على العمل، وأن وجهين متقابلين كانا دائماً متيقظين، وأن الآلهة لا يستطيعون بالتالي مهاجمته والقضاء عليه غدراً، وأن أربعة أرجل لا تُلزم صاحبها ببذل الكثير من الجهد في الوقوف أو المشي الطويل.

والأخطر من هذا كله، أن هذا المخلوق لديه عضوان جنسيان ولا يحتاج لأحد من أجل التناسل..

عندئذٍ قال "زيوس"، وهو الزعيم الأعظم للأولمب: "لدي خطة لأنتزع القوة من هذه الكائنات الفانية"..

فما كان منه إلا أن أنزل الصاعقة فانشقت المخلوقات شطرين، رجل و امرأة، مما جعل نسل الأرض يزداد كثيراً، لكن هذا الانشطار بين ذكر وأنثى أضعف ساكني الأرض وأثار فيهم البلبلة والضلال..

صار لزاماً عليهم أن يبحثوا عن نصفهم المفقود ويعانقوه من جديد ليستعيدوا بهذا العناق قوتهم السابقة ومهاراتهم المفقودة ليصبحوا أشد قدرة على مواجهة المتاعب والمشقات واتقاء سهام الغادرين. هذا العناق الذي يستطيع من خلاله الجسدان أن يجتمعا من جديد لكي يصير واحداً هو ما ندعوه الحب".

انتهى رامي من سرد الأسطورة، تعجبتُ منها وشدتني كثيراً، سألته:

ـ أهذه القصة حقيقية؟

ـ أجل، بالنسبة لأفلاطون.

شردت طويلاً أثر سماعي لهذه الأسطورة، أيعقل أنه في عهد مضى كنا أنا وأنتِ مخلوقاً واحداً وشطرتنا الصاعقة نصفين!؟ أيعقل أنني كنت أعيش سنواتي الماضية باحثاً عن نصفي، ذاك الذي فقدته!؟.. ولكن إن كنتِ المرأة التي شاركتني الجسد يوماً، أليس من المعقول أن تُبدي ولو بنظرة خاطفة عما شعرتِ به!؟ كشعوري أنا على الأقل.

تضاربت الأفكار سريعاً في رأسي، نظرت لكرم فرأيته يعبث بهاتفه المحمول وقد ارتسمت على وجهه علامات الملل، فلم يكن من محبي الفلسفة والأساطير وما شابه على عكسي أنا ورامي، رغم ذلك، فقد كان كرم صديقي المقرب حتى لو لم نكن نتلاقى في حب الأدب والفلسفة، إلا أن الخبث كان قاسمنا المشترك!

نظرت إلى رامي فكان ينظر لي صامتاً تاركاً لي المجال للصراع مع أفكاري..

زادت رغبتي في التعرف عليكِ والتقرب منكِ أكثر، أحسست وبشدة بحاجة في أن أضمكِ إلى صدري وأقول لكِ:

هنا بيتكِ، تعالي وارقدي داخله بسلام، واللعنة على زيوس الذي فرقنا!

تحدثت إلى رامي وأخبرته عما جرى قبل قليل بالتفصيل، أخبرته بقدر ما استطعت أن أصف من مشاعر اختلجتني لحظة نظركِ لي.. سألته في النهاية إذا ما كان يعرف شيئاً عن المكان الذي قصدتِه باعتباره في نفس الحيّ.

أجابني بثقة وهدوء تامّين:

ـ نعم، فقد كنت أقصده قبل سنتين من الآن.

اعترت وجهي علامات الدهشة وقلت له بصوت ملهوف:

ـ أخبرني أرجوك.

ـ حسناً، أؤكد لك باعتبارك شاهدتهنّ يحملنَ آلات موسيقية أنهنّ يأخذن دروساً في الموسيقا عند الأستاذ "حسان".. كنتُ أتردد إليه قبل سنتين، كما أخبرتك، من أجل تعلم العزف على البيانو.

يا الله !.. لقد رمى رامي لي للتوّ تلك القشة التي ستنقذني من الغرق.. لقد اجتزت ربع المسافة بغضون ساعة فقط؛ أمسكت بتلك القشة وكلي أمل بالنجاة من بين تلك الأمواج التي تعمل على إغراقي..

ها قد طلَّ القمر.. رأيتك تخرجين لتصعدي داخل سيارة أجرة كانت تقف منذ أقل من عشر دقائق.. غادرتِ الحي، فشعرت بقلبي يضرب زنزانة صدري ويصرخ باكياً: "اتركوني ألحق بها"!

* * *

الثالثة فجراً في ذات اليوم:

مستلقياً على ظهري.. عيناي غارقتان في تأمل سقف الغرفة، الدنيا ظلام وهدوء الليل موحش.

ليلتها لم تفارقي تفكيري البتة، وفي نهاية المطاف، استسلمت لمخدعي وغططت في ثباتٍ عميق..

رأيتكِ تقفين في منتصف شارع وتبكين، حولكِ دخان كثيف كأنّ حريقاً يلتهم المكان.. كنت أسير في بداية الشارع ذاته عندما رأيتك، ركضت ناحيتك بكل ما امتلكت من شوق.. انتبهتِ لصوت خطواتي الثقيلة وركضتِ نحوي بدورك، شاهدت أيادٍ تخرج من تحت الأرض وتحاول عرقلتنا.. لم نبالِ وظللنا نركض في اتجاه بعضنا البعض.. ظللنا نركض ونركض وكأن المسافة تطول بيننا، حتى وصلنا أخيراً وتعانقنا.

تلاحمت أطرافنا وأصبحنا جسداً واحداً بعنقٍ ووجهين كل واحد ينظر باتجاه آخر، أربعة أذرع، أربعة أرجل!

بدأت الأيادي الممدودة من تحت الأرض بالانسحاب، وفجأة انفصلتِ عني واستدرتِ ناحية الدخان وهممتِ بالسير..

صرختُ بكِ كي تعودي ولحقت بكِ لكنكِ دفعتِني بيدكِ فوقعتُ على الأرض واختفيت أنت داخل السحابة السوداء!

استيقظتُ في الساعة الواحدة ظهراً، جسدي منهك من كثرة النوم وروحي متعبة تشتاقك.. عيناي تتضرع النظر إليكِ وقلبي مازال يخبط ويخبط داخل زنزانته.

تذكرت المنام وابتسمت.. يبدو أن قصة رامي وأفلاطون تلك قد أثرت عليَّ بشكل كبير ..قطعت طرقات الباب حبل أفكاري .. إنه كرم، أعرفه من طريقة دقه على الباب، نهضت وفتحت له..

ـ أين أنت،.. قال كرم بغضب. لماذا هاتفك مغلق منذ البارحة؟

ـ كنتُ ألتحم بجسدها. أجبته مبتسماً.

لم يعر اهتماماً لما قلت، فأكمل قائلاً:

ـ مبروك.. لقد انتصر فريقنا مسجلاً هدفاً في الدقيقة التسعين. عن أي فريق يتكلم؟ وأي فوز هذا؟ .. إلهي لقد تذكرت.. مباراة الكلاسيكو.. لقد نسيتها تماماً!

جلسنا نتابع ملخص المباراة، وقضينا الأمسية في منزلي منهمكين في لعب ألعاب الفيديو وأمور أخرى.

*

(٣)

كل شيء يمضي ويزول إلا اللحظة الحاضرة.

تينيسي ويليامز

مضت ستة أشهر على لقائنا الأول كنت قد حفظت بها مواعيد دروسك الموسيقية بدقة.. كنت أحضر قبل ربع ساعة ليحين موعد قدومك..

خطواتكِ تزلزل الطريق على الرغم من خفتها، تأتين لتشاهديني جالساً مع "أبي أحمد" أمام دكانه المتواضع، كنت قد تعرفت عليه سابقاً باعتبار أن دكانه يمتلك موقعاً استراتيجياً، قبالة منزل "الأستاذ حسان" مباشرة.. تبتسمين لي بهدوء فكنتِ قد اعتدتِ على وجودي هنا طوال ستة أشهر.

ستة أشهر اعتبرتها مدة طويلة جداً وكل ما أعرفه هو أن هناك فتاة سرقت قلبي ولا أدري ما اسمها!

بالإضافة إلى عنوان منزلكِ فقد كنت أسير خلفكِ حينما تخرجين عائدة للمنزل.

هذا ما تغير خلال الأشهر الستة الماضية؛ والأهم من ذلك أنك في الشهر الثاني، اعتدتِ على العودة لمنزلك سيراً على الأقدام مع فتاة أخرى تقصرك قامة، من دون سيارة أجرة تقلك، هل يعني هذا أنك سعيدة بوجودي؟ ربما نعم، وربما مجرد أوهام أخلقها لأبث السرور في داخلي.

أتخيل اسمك، أي اسم هذا الذي سيمنح ذلك الجمال حقه! حروف اللغة لا تقدر على اختصارك بكلمة ولا حتى باسم.. ولكنني كنت محتاجاً لاسم أناديك به بيني وبين نفسي حينما أذكركِ فأسميتكِ "يوتوبيا". مدينتي الفاضلة.. أحتاجك وطناً كي أثبت بكِ هويتي، أحتاجكِ أرضاً كي أرقد تحت ثراها بسلام عندما أموت..

مدينتي الضائعة التي لطالما حلمت بلقائها.. مدينتي التي ستمنحني السلام، وتهب قلبي الحرية.. مدينتي التي ستمنح قلبي حقوق الحب، وتجردني من جميع المساوئ التي لبستني..

مدينتي الضائعة تقف الآن بعيدة عني بأمتار قليلة ولكنني لا أجرؤ على الدخول رغم وضوح بوابتها..

نعم ستة أشهر ولم أجرؤ على اقتحام قلبكِ، فجيوشي لم تكن مهيأة للحرب بعد.. جيوشي ما زالت متفرقة تبحث عن ملجأ كلما قصفتِها بكحل عينيك، كل ما كانت تفتقره هو الجرأة والقوة فقط.

الجرأة والقوة لأمضي ناحية أسوار تلك المدينة، فإما أن تقبل ملكتها/أنتِ بحقن الدماء وتدخلني بسلام، أو أنني سأضطر آسفاً للعودة أجرُّ خلفي ذيول الخيبة.. أنا لا أريد الحرب، أريد الدخول بسلام. ولكن ماذا لو كانت تلك المدينة مسكونة من قبل أحد آخر؟ إن التفكير في ذلك يقلقني، فإذا وجدتها مسكونة حتماً سأُقتَل على أسوارها..

أدعو الله أن تكون خالية.. صدقيني جئتكِ ساكناً لا سائحاً..

مدينتي الفاضلة أنتِ، وأيَّة مدينة تلك التي اخترت!

ستة أشهر مضت، وكلما تمالكت نفسي وعزمت أمري على محادثتكِ تلاشت ثقتي بنفسي في حضرتكِ..

شارفت الساعة على الانتهاء وسيحين موعد خروجك بعد دقيقة فقط، الطقس باردٌ جداً ولكن لا بأس، فالسير خلفكِ سينشر الدفء في روحي.. السير خلفك!

أقسم وعلى الرغم من مساوئي التي لا تعلمين عنها شيئاً أنك الفتاة الوحيدة التي تبعتها في الطريق..

كنت أخشى أن تفكري في ما إذا كنت معتاداً على فعل مثل هكذا أشياء، فذلك حتماً سيصغرني في عينكِ، ولكن الحقيقة أنك كنتِ الوحيدة يا ليلك.

طبعاً لم أكن أقضي وقتي معتكفاً في المساجد وعندما رأيتكِ صدفة وقعت في غرامك، ولكن كل ما كنت أفعله هو التحدث مع الكثير من الفتيات، وتفحص وجوه العابرات صدفة في طريقي فقط!

تعلمين.. فكرت في أن أكف عن اللحاق بك، ولكنني كنت ضعيف الإرادة. فالأمر بالنسبة لي يشبه الإقلاع عن التدخين، ليس مستحيلاً ولكنه صعبٌ جداً.

كانت تلك المسافة التي أقطعها سيراً خلفك كالمهدئات التي أحقن بها نفسي كي لا أصاب في آخر الليل بوعكة اشتياق.

*

في أحد المساءات الشتوية الباردة من شهر "نوفمبر"، كان المطر ينهمر بغزارة شديدة..

أرخت السماء حبالاً من الأمطار لم يسبق لي أن شهدت كغزارتها من قبل..

ارتديت ملابسي وهممت بالخروج، فقد كانت خمس عشرة دقيقة فقط هي المدة المتبقية على موعد انتهاء درسكِ.

لم أكن انتظرك يومها لأول مرة قبل موعد الدرس لشدة الأمطار.. انتظرت كي تهدأ ولكنها لم تفعل، بل ازدادت غزارة أكثر، وكأن جميع قصص الحب كُتب لها أن تُخلق تحت المطر.

سرت وحيداً في الظلام ومن دون مظلة أيضاً، الطقس بارد جداً على غير العادة، فعندما تمطر يتلاشى البرد قليلاً.

شعرت بخيوط المطر تلامس روحي قبل أن تلامس جسدي.. بيد أنني لم ألبَس سوى دقيقتين حتى تبللت جميع ملابسي وسال "الواكس" على وجهي، حتى جوربي باتت تعصر مع كل خطوة أخطوها بحذائي "الكونفيرس" الذي كان قبل قليل أبيض.

كان مظهري يدعو للشفقة، خصيصاً بذلك الشعر الذي أسدل على عيني.. ولكنني لم أكترث لكل هذا، فكل تفكيري كان متوجهاً نحو شيء واحد فقط: كيف ستراني بهذا المظهر بعد قليل!؟

وصلت قبل دقيقة من الموعد، كان أبو أحمد قد أغلق حانوته باكراً على غير العادة.. أعتقد أن السبب هو طقس تلك الليلة، ولكن خطر في ذهني فجأة..

ماذا لو أنها بقيت في منزلها أيضاً!

فقد كان الطقس لا يشجع على الخروج أبداً باستثناء بعض المارة الذين شاهدتهم في طريقي، والذين أجزم أن الحاجة الشديدة هي من دفعتهم للخروج، وذلك العاشق الذي لم يكن يفكر إلا باحتمال أن يراكِ.. على أية حال، لم أكن

أعلم حينها أن حبكِ للموسيقا سيدفعك على الخروج ولو كانت السماء تمطر قروداً!

أخيراً استقرَّ عقرب الساعة الكبير على الثانية عشر تاركاً العقرب الصغير عكسه بالضبط.. إنها الساعة السادسة.

ما هي إلا لحظات مضت حتى شاهدتكِ تخرجين رفقة الفتاة التي اعتدت رؤيتها معكِ دائماً، فتحتِ مظلة كي تقيكِ وابل الأمطار المنهمر بشدة..

وقعت عيناك عليَّ فوراً، فقد تعمدت عن قصد أن أقف أسفل عمود الإنارة على الرصيف المقابل للمدخل مباشرة حتى تشاهديني لحظة خروجك.. وفعلاً، هذا ما حصل.

لم تبتسمي كما اعتدت أن أراك تفعلين، بل نظرتِ لي نظرة تعجب ممزوجة بالشفقة على حالتي التي يرثى لها..

كنتِ مندهشة حقاً، فأي عاشق هذا الذي يخرج في هكذا طقس من أجل رؤية فتاة؟ ومن دون مظلة أيضاً!

مشيتِ أمامي فأحسست أن روحي تغادر مني لتمشي بجانبكِ.. تبعتكِ والفارق بيننا بضعة أمتار لا تتجاوز العشرة.

ما دعاني للدهشة هو أنكِ تلتفتين ناحيتي بين الحين والآخر على غير العادة، فقد كنتِ عادة ما تمشين دون أن تشيحي النظر إليَّ، دون أن تديري رأسك للوراء مطلقاً.

لطالما رأيت الثبات والثقة في خطاكِ، ولكن التفاتكِ لي بمعدل مرة واحدة في الدقيقة أثار حيرتي!

وقبل وصولك إلى منزلك بشارعين، توقفتِ وحدكِ، بينما تابعت صديقتكِ المسير رفقة مظلتها.

توقفتِ وأدرتِ وجهكِ ناحيتي، نظرتِ لي نظرة عنوانها الثقة.. تنظرين إلي الآن والسحر الأسود ينبعث من عينيكِ ليدخل مساماتي وينتشر في داخلي ليفتك بروحي ويعتصر قلبي من جديد.

بدأت الأمتار العشرة تتضاءل بيننا شيئاً فشيئاً، وعقلي يعمل بمعدل ألف فكرة في الثانية.. ماذا أفعل الآن؟ ماذا سأقول؟ أتصنع العفوية وأمضي بخطاي أم أقف قبالتها وأكلمها؟

حتماً تريد محادثتي، فما زالت واقفة تصوب نظراتها تجاهي..

هل يعقل أنا ستوبخني لأنها سئمت لحاقي بها؟ هل ستهددني بشقيقها الأكبر إذا عاودت فعلتي تلك؟ متران أو ثلاثة وسنرى، لكن ماذا علي أن أفعل فلم أكن مستعداً أو عازماً أمري بعد.

كل هذا لم يتجاوز الأربع ثوان!.. أقف قبالتها الآن.. أنظر مباشرة لعينيها، قلبي يضرب ويخبط بشدة، فقد تجاوز حدود النبض لحظتها..

جسدي بالكامل يرتعش، ليس برداً، ولكن لأنني كنت في حضرة ليلك.

عيناي تكاد تخرج مني كي تعانق عينيها.. عينيها!

سبحان من جمع الضدين في عينيك السوداء فأتمَّ بهما نصف جمالك يا ليلك!

تمالكت نفسي أخيراً وألقيت عليك التحية، فلم تبادليني بها.. كنت تنظرين إلي تماماً كما كنت أنظر إليكِ.. أخيراً نبسَت شفتاكِ بستّ كلمات:

ـ ماذا تفعل هنا في هذا الطقس ؟

كانت تلك المرة الأولى التي أسمع بها صوتك يا ليلك، صوتك وكأنه نوتة موسيقية أُلفت خصيصاً من أجل إسعادي، فرقص قلبي عليها طرباً.

لحظة، لحظة!..

لقد سألتني ماذا أفعل هنا في هذا الطقس !

تراها خائفة عليَّ من أن أصاب بزكام أو ما شابه؟

أيعقل أنها تكترث لأمري!؟

أجبتكِ بشيء من التردد:

ـ أمارس طقوسي الخاصة.

ـ الطقس باردٌ جداً.. انظر لنفسك، ستمرض حتماً.. خذ مظلتي واذهب لمنزلك.

أجبتكِ من دون تردد:

ـ أنتِ منزلي.

ابتسمت فخفق قلبي من جمال غمازتها، ثم قالت:

ـ خذها وانصرف من هنا حالاً.. هذا أمر.

ولكنني أردت سماع صوتك أكثر، اضطررت كي أماطل:

ـ حسناً.. افترضي أنني أخذتها، كيف سأعيدها لكِ؟

ـ بعد غد إن لم تكن نائماً في المستشفى.. يا طارق.

أصابني ذهول تام، لقد نطقت اسمي لتوّها! لولا شدة ذهولي لأخبرتها أن تعيد اسمي مرة واثنتين وعشر..

لاحظتِ علامات التعجب التي بدأت تدور فوق رأسي فقلتِ:

ـ نعم.. أعرف اسمك، والآن خذها وانصرف فقد تأخرت على المنزل.

أجبتكِ والدهشة تكاد تبتلعني:

ـولكن، كيف !؟

ـ سأخبرك لاحقاً، انصرف الآن.. بالمناسبة أسمي "ليلك".

ليلك! فلتسلم شفاه من نطق باسمك حين ولدتِ واقترح هذا الاسم، فقد كان الليلك من يشبهك، لستِ من تشبهينه يا ليلك.

قالت جملتها الأخيرة وانصرفت دون أن تمنحني حق الرد.. تركتني غارقاً في أفكاري.. تعرفني جيداً، تعرف اسمي، ستخبرني لاحقاً كيف عرفته، تدعى ليلك، .....

تزاحمت الأفكار في رأسي ولم أصحُ منها إلا حينما وجدتُ نفسي أقف أمام باب منزلي.

دخلتُ إلى غرفتي وبدلت جميع ملابسي.. حقاً كنت في حالة يرثى لها!

أشعلت المدفأة واستلقيت أمامها سارحاً وراء أفكاري..

أريدكِ أنتِ وأريد أناملك لتملأ الفراغات التي بين أصابعي..

حاربتُ الليالي من أجلكِ يا بيت مقدسي، أردتُ الوصول إليكِ والصلاة في محراب شفتيكِ.. يا امرأة اجتمعت في تفاصيلها معجزات خلق الله، هبيني معجزة واحدة أميس بها في رحاب عينيكِ..

خذيني مسلماً يرتل آيات من القرآن على كمال حسنكِ.. مسلمٌ يصوم عن نساء الكون أجمع، ويكتفي بكِ وحدكِ لا شريكة لها في قلبه..

خـذيني مسـيحياً، عمـديني بميـاه قلبـكِ.. أدخليـني كنيسـة صـدركِ بعنـاقٍ لأتلـو صـلاتي بـين أضـلعكِ، وضـعيني صـليباً يغفو بين نهديكِ..

خـذيني، فقـد جئتـكِ رسـولاً مـن سمـو العشـق لأتلـو عليـكِ آيـات مـن الحـب، احتـويني في جنـات قلبـكِ، واجعليـني بهـا خالداً إلى الأبد.

*

(٤)

مظهرنا يعبر عما في داخلنا.. فمن يبدو كملاك، هو في الحقيقة ملاك.

توماس هاردي

لم يطل بنا الأمر كثيراً حتى نصاب بسهام الحب ونقع باسمه شهيدين. كنتِ تفكرين بي مثلما كنت أفعل، علمتِ اسمي عن طريق المصادفة، فقد كنتِ من متابعي صفحتي العامة على "الفيس بوك" دون معرفتك أنها تخصني.. أخبرتكِ صديقتكِ بطريقة ما أن صاحب تلك الصفحة هو ذاته "عاشقك الولهان".

تعجبتُ كثيراً حينما رويت لي ذلك، ورجوتكِ أن تخبريني كيف حدث ذلك وبالتفصيل، ولكنكِ قلت يومها: "طرق نسائية".

ضحكتُ على ردك هذا، وأخبرتكِ بعد أن عجزت في إقناعك على أن تسردي لي القصة:

ـ قرأت ذات مرة أنه لو يتم تشكيل فروع أمن من النساء لانكشفت الجريمة بسرعة أكبر مما يقوم به الرجال من المباحث.. إنها حقيقة وصدق من قال.

أجبتني بابتسامة ثقة:

ـ أخبرني، ما اسم الكاتبة؟ أريد قراءة إصداراتها كافة.

ـ ولماذا أعطيتِ القائل صفة المؤنث؟ قد يكون كاتباً.

ـ لأن الرجال لا يعترفون بشدة ذكائنا يا مغفل.. ولو اعترف القسم الآخر فلن يقارنوه بذكاء الرجال.

ـ بصراحة أفحمتِني، ولكنني لا أذكر أين قرأتها ومن كاتبها على أية حال.

كنتِ تجلسين بجواري.. يتوسطنا متر الأمان الذي أصررتِ على قدومه صحبتكِ في لقائنا الأول.

خصلات شعرك تداعب وجهي كلما طارت مع نسمات الليل البارد آنذاك. تارةً تتحدثين وعيناك موجهة نحو الأمام، فتتركين لي بذلك بضعة لحظات أتأمل فيها نصف وجهك، وتارة تنظرين لي فأنتقل بعيني للنظر إلى وشاحك الذي تضعينه حول رقبتك.. كنت أتجنب النظر إلى عينيكِ مباشرة خشية من أن أتوه عن الحديث.

كنت تتحدثين عن تعلقك بالموسيقا، وتعدين لي النوتات التي تعلمتها بغضون سنة..

أدرت رأسك ناحيتي بسرعة فتشابكت عيناك بعيني.. لم تديري وجهك خجلاً هذه المرة مثلما كنتِ تفعلين قبل لحظات، ولم أفعل ذلك بدوري أيضاً..

صمت فجأة، فبدأت عيناك الكلام..

أصدق الأحاديث هي تلك التي تحكيها أعيننا، ولم أرَ يومها إلا الحب والصدق في عينيكِ..

نظرت لعينيكِ مطولاً، فوجدت نفسي أسير بلا هدى داخل تفاصيلها، ظللت أمشي وأمشي باحثاً عن دفئي ونشوة روحي حتى انتشلني صوتكِ فأعادني إلى حيث كنت أجلس:

ـ لماذا أحببتني أنا يا طارق؟

سألتني بثقة وبسرعة كبيرة، فأجبتكِ بسرعة أكبر:

ـ لا أدري !

ـ ألا تدري لماذا أحببتني؟

أشعلتُ سيجارة، وأجبت:

ـ كنت لا أؤمن بالحب من النظرة الأولى حتى وقعت عيناي عليكِ.. نظرة واحدة إليك أربكت كياني، وما حصل

لي حينها ليس حباً وحسب.. أجد نفسي غير قادر على وصف ما شعرت به، بيد أنني واثق كل الثقة أنه ليس حباً فقط.. هو شيء لا يمكن اختصاره بجملة، ولا حتى بكلمة.. شيء يحتاج دهراً وقد لا يُحكى.

كل ما أعلمه هو أنني أحبكِ، ولا أدري لماذا.. ولكنني أعلم أن الحب الذي لا قدرة لنا على تفسير أسبابه هو أصدق أنواع الحب.

ـ ماذا لو اكتشفتَ بعد مدة أنها مجرد نزوة، أو ربما إعجاب؟

ـ لو أستطيع فتح قلبي فأريك داخله لما نطقتِ بذلك.. لستِ المرأة الأولى التي عرفتها يا ليلك، ولكنك الوحيدة التي أحببتها بصدق، أحببتها وأنا مسؤول أمام الله عن كل وعد سأقطعه لها..

أن أحبكِ يعني أن قلبي سيكون وطناً يحتويكِ إن هجرتكِ أرضنا ولم تسعك حدود الكون..

أن أحبكِ يعني أنني أصلي الليالي *وأدعو الله أن يهبكِ أجر صلاتي.*

أحبكِ يا ليلك.. أحبك وسأكون لك الشمعة التي تنير لياليك المظلمة وتسهر معك كي تؤنس وحشتكِ.. لم أكن من الذين يؤمنون بالحب من النظرة الأولى نعم، ولكنني أحببتك من النظرة الأولى!

ألا يعني هذا لك صدق مشاعري؟ ألا يعني أن هناك من تمرد على قوانيني وكسرها؟

الذي استطاع كسر قوانيني فحتماً قد امتلك قلبي.. حينما رأيتكِ يا ليلك أدركت أن لقلبي صوتاً، فقد سمعت صوته يصرخ:

"ادخليني من حيث شئتِ"

لا أدري يا ليلك كيف استطعت فك شيفرة قلبي بغضون ثوان ونظرة.. هذه هي الحقيقة، لا أدري!

تعلمين يا ليلك؟ لم يكن قلبي يفهم أن للحب معنى قبل أن ينبض لكِ، أما الآن فقد صار لكِ وحدكِ..

سلمتكِ قلبي فلم أستطع حمايته أمام عينيكِ السوداء.. قلبي الذي اعتبرته مملكتي الخاصة دوماً ولم أسمح لأحد قبلك بالعيش داخله قد صار ملككِ، فحللتِ أهلاً ووطئتِ سهلاً.

أنهيت حديثي ونظرت لكِ.. لم أستطع سوى أن أعانقكِ بنظراتي..

استمعتِ لي بانتباه شديد وعيناك تلمعان، نطقت كلمة واحدة فقط: "أحبك".

تلك كانت المرة الأولى التي أسمعها بصوتكِ.. شعرت حينها بروحي تحلق في السماء وكأن الأرض قد ضاقت بها.. شعرت بنفسي أطير في الفضاء رفقة طيور الحب.

بجرأة غير معهودة عند المرأة الشرقية قضيتِ على مسافة الأمان التي تتوسطنا فتلامس جسدانا..

ضممتني بحب، أرخيتِ رأسك على كتفي فشعرت بالفراغات تمتلئ في داخلي.. كنت أتنفس رائحتك بشغف وحب، كانت كالمطر تماماً تسقي روحي العطشى وتنبت في قلبي أزهار الربيع بعد شتاء قاسٍ وطويل.

شعرتُ وكأنما امتزج جسدانا في ذلك العناق، وتحققت الرؤيا في ذلك اليوم..

الحمد لله الذي أنزل السكينة والأمان حينما جمعني بنصفي الآخر، ذلك الذي أضعته يوماً.

أليست إغاثة الملهوف من شيم العرب؟

عنـدما نظـرت لوجهـكِ وجـدت شـفتيكِ تصـرخان بخجـل: "قبلني"..

فما كان مني إلا أن استجبت النداء.

*

(٥)

إذا كان صحيحاً أننا لا نستطيع أن نعيش إلا جزءاً وحيداً ممَّا هو كامنٌ في داخلنا، ماذا يحدث لما تبقى؟

باسكال ميرسيه

اختلفت آراء الفلاسفة في تعريفهم الحب، فمنهم من عرفه على أنه الإرادة والرضا ومنهم من أرجع أصله إلى أنه عاطفة تجذب شخصاً نحو شخص من الجنس الآخر مصدرها الأول يكون الميول الجنسية..

منهم من عرفه بأنه ميل القلب أو النفس إلى أمر ملذّ، ومنهم من وصفه بالانفعال النفساني والانجذاب المخصوص بين المرء وكماله.

يطول الحديث عن الحب، وتطول معه آراء الفلاسفة واختلافاتهم في تعريفه، ولكن الأمر لا يحتاج كل ذلك

التعقيد فصغيرنا قبل كبيرنا يدرك أن الحب، مهما تعددت فروعه واختلفت أنواعه، يبقى ملح الحياة.

تبقى حياتنا ناقصة نكهتها اللذيذة إلى أن تضاف عليها نكهة الحب..

صحيح أنه هناك حب الأم لطفلها، وحب الرجل لزوجته.. هناك حب الفلاح لأرضه وحب الأناني لذاته،.. ولكن يبقى الحب الوحيد الذي يبلغ أرواحنا نشوتها هو ذلك الحب الذي يكون لشخص لقيته مصادفة فأصبحتَ به مكتفياً..

أنتِ الحب الصادق والحقيقي الذي انتظرته طيلة عقدين وبضع سنوات من عمري يا ليلك، الحب الذي لا يضاهيه برفعته وسموه أي حب آخر لدرجة أنه جعلني عندما أذكر اسمك بداخلي فقط، أو تداهمني فكرة أنه بعد قليل سنلتقي، أتوه في عالم آخر بعيداً عن حيث أنتمي.

أحببتك حباً صادقاً يشهد الله عليه قبل أن يشهد الحاضرون.. المعادلة كانت بسيطة جداً، قربكِ مني يعني أنني تحت جذر السعادة، وبعدك هو حزن مستحيل الحل وألم إلى ما لانهاية.

قربك مني يزيل كلمة حزن من قواميس حياتي.. فلماذا أراك، حتى وعندما أكون بجوارِك، مكتئبة !

ما السبب الذي يجعل من عينيكِ حزينتين أحياناً حتى وأنا معك؟ ما السبب في مزاجيتك المفاجئة!؟

كنت أدرك أنك لا تخفين شيئاً عني، ولكنني أخشى أنني بتُّ أشك في ذلك، ألستِ من أخبرتني بأنني من أكملتُها وأنها من عشقتني؟

لماذا أراك ذابلة العينين، مطفأة الحماس، ومكتئبة كلما وصلنا بحبنا إلى مراحل الجنون؟

لم نزل في بداية سعدنا يا ليلك، أين الخطأ!؟

أذكر يوم صدور نتائج مفاضلة القبول بالكليات، في بداية تعارفنا، كانت رغبتك الأولى التي فاضلتِ عليها هي "كلية الهندسة المدنية" فكنتِ كما أخبرتني تطمحين منذ نعومة أظفارك بتحقيق حلمين في هذه الحياة، تعلم الموسيقا وقد تحقق، وحبك للهندسة المدنية وحلمك بأن تصبحي مهندسة مدنية ذات يوم.

اتصلت بكِ سرعان ما ظهرت النتائج لأبشرك بأن درجاتك تمكنك من القبول.. بيد أن ردك علي فاجأني جداً:

ـ الحمد لله. تعجبت جداً من هذا الجواب؛ الحمد لله دائماً وأبداً، ولكنها كلمة لا تقال لوحدها من فم شخص حارب سنيناً طويلة من أجل تحقيق حلمه وقد تحقق!

أخبرتكِ ذلك ولكنك تذرعتِ بأنك كنتِ على ثقة من أنك ستحققين حلمك ولذا لم تتفاجئي..

لم أقتنع يومها، ولكنني أُجبرت على الصمت..

* * *

مساء ذات اليوم:

خرجنا مساءً إلى مكاننا المعتاد، جلسنا تحت شجرتنا المفضلة متقابلين، وغرقنا بخوض أحاديث طويلة..

حدثتكِ عن الحياة الجامعية كثيراً كي أزيد من حماسك..

تبادلنا بعضاً من النكات "التافهة" التي تجعلنا، أنا وأنتِ، نغرق في نوبات هستيرية من الضحك:

ـ ليلك.

ـ نعم.

ـ ليلك..

ـ نعم.

ـ ليييلك !!

ـ عيونها.

ـ ليش الشيطان نحيف؟

ـ ليش !

ـ لأنه "رجيم".

لم أشعر إلا بمياه "الكوكا كولا" تخرج بانفجار ضاحك من ثغرك الصغير لتصيب وجهي بشظاياها!

نظرت لكِ وأنتِ تضحكين فتهتُ من جديد في سراديب عينيكِ وكأنها المرة الأولى التي أنظر إليك فيها.

انتبهتِ على الفور وقلتِ لي ضاحكة:

ـ شكلو الحلو ضاع بعيوني.

لم أرد على تعليقك الأخير وبقيت شارداً في عينيكِ باحثاً فيهما عن راحتي.. وضعتِ يديك عليهما لتمنعيني من الرؤية، أو كي تعيديني إلى رشدي من جديد وتابعتِ:

ـ أتكلم معك!.. أخبرني ما الذي تشعر به حينما تنظر لعيني حتى تصاب بتلك الحالة الغريبة من الشرود!؟

أمسكت بيديكِ وأبعدتهما عن عينيكِ.. قبلتهما وأعدت النظر لعينيكِ من جديد:

ـ ما أشعر به هو أنني أكون في عالم لا ينتمي إلى عالمنا أبداً، وما يصيبني بالشرود هو أنه كلما تهتُ فيهما استحضرني قول الشاعر:

إنَّ العيون التي في طرفها حورٌ

قتلننا ثم لم يُحيين قتلانا

يصرعن ذا اللُّبّ حتى لا حراك بهِ

وهُنَّ أضعف خلق الله أركانا

نطقتُ لك تلك الأبيات الشعرية بكل صدق وعفوية.. شعرتُ بكلماتي تلامس روحكِ وكأنني القائل وليس "جرير".

تبدلت ملامحك فجأة.. أفلتّ يديك اللتين كنت أضمهما داخل كفي، نظرت لساعتك وأخبرتني أنه عليك الرحيل فوراً.

حينما أخبرتني أنك راحلة، صُعقت من الدهشة فسألتك بدهشة:

ـ ما الذي يحصل يا ليلك؟

ـ لا شيء.. أريد أن أعود فقط.

ـ ولكن.. انظري لنفسك.. ليلك! ما الذي يجري !؟

ـ أخبرتك أنه لا شيء، تأخرت فقط.. وهذا كل ما في الأمر.

حاولتِ أن تفلتي يديكِ من جديد فأطبقتُ عليهما بشدة وكأني وضعت كامل دهشتي وغضبي معاً.. كررت السؤال:

ـ عزيزتي ليلك.. ماذا جرى؟

وبعد أن عجزتِ عن الإفلات من قبضة يدي.. استسلمت لهما أخيراً، فأحسست بقواك تخور وأعصابكِ تنهار.

وضعتِ وجهك الصغير على صدري وبدأت تبكين.. كنتِ تبكين كطفلة صغيرة لا تقوى على حفظ جدول الضرب.. ضممتكِ إلى صدري وكلي دهشة، فشرعتُ أبكي معكِ،

إلى الآن لا أدري سبب بكائي ذاك، ولكني شعرت بالضعف حينما كنتِ تبكين.

ـ ليلك... ليلك!

ولكن زهرة الليلك كانت ذابلة على صدري لا حول لها ولا قوة إلا البكاء.

رفعتُ وجهك ومسحت دموعك بأطراف أصابعي، قبلتكِ من جبينكِ.. ضممتكِ إلى صدري وبقيتُ أمسح على شعركِ حتى هدأت.

بقيتِ قليلاً متشبثة بصدري، ثم نظرتِ لي بوجهٍ مبتسم وعينان تملؤها الدموع..

سألتكِ من جديد عن سبب بكائك المفاجئ، ولكنك ابتسمت وقلتِ:

ـ لا أدري، لكنني معتادة منذ صغري على تحويل مشاعر فرحي لسيل من الدموع.

ـ ولكنك كنت تبكين وتشهقين!

ـ لا أدري لماذا، لهذا السبب أردت الذهاب.. كي لا تخالني مجنونة.. وابتسمتِ.

لم أتكلم أكثر، ولكنني بقيت طوال الليل بعد عودتنا أتقلب في فراشي وأنا أفكر..

ملامحكِ لم تبدِ أي سرور يا ليلك لتبكي من الفرح.. كنتِ تشهقين أكثر مما تبكين.. عيناكِ يا ليلك.. تلك السوداء، كانت مطفأة ومظلمة أشد من ظلمة الليل، ووجهك تعلوه مسحة، بل مسحات، من الحزن.

أقلقتني أفكاري كثيراً، ولكنني نمت في النهاية.

*

استيقظت صباحاً على صوت هاتفي، فقد كانت العادة أني لا أستيقظ إلا على صوتك.

ـ صباح الخير.

ـ صباحي أنتِ.

ـ أما زلت نائماً؟

ـ نعم، أكلمك من داخل الحلم.

ضحكتِ طويلاً، ومن ثم مارستِ طقوسنا الصباحية المعتادة/أغنية فيروزية بصوتكِ..

تحدثنا قليلاً واتفقنا على اللقاء مساءً، أسفل شجرتنا.

*

أغنية بدأت لتوها عنوانها أنتِ، مطلعها فراشة تطير صوبي تجعلني أتمنى لو أنني خلقت زهرة لتحطَّ عليّ..

تقطعين المسافة بيننا بسكين الغرور، كغزالة تمشي الهوينا أمام فتيات القبيلة لتذكرهم أنه وحدها من تكون المشبه به مهما بلغن من الجمال إذا ما كان الجمال وجه الشبه.

خطواتك تقترب مني أكثر وخلخالك يصدر لحناً يرغم قلبي على الرقص طرباً من شدة عذوبته..

كنتِ يا ليلك كأغنية شرقية أبدعت العزف على أوتار قلبي..

ألقيتِ السلام عليَّ فرددت بقبلة لأن الله من أوصانا بأن نرد التحية بأحسن منها.

تذوقت الشهد من خدكِ فشدتني ريح النبيذ في شفتيكِ، تمالكت نفسي وانسحبت بعد أن شربت العسل.. فلا يجوز لي أن أثمل الآن، فهناك آية من الجمال تجلس أمامي وعليَّ ترتيلها:

بسم عينيكِ أبدأ..

الحمد لله الذي هداني قلبكِ، وماكنت لأهتدي لولا أن هدتني عيناكِ.. كلي ملكٌ لكِ، وما قلبي وما خفقانه إلا لأجلك.

أطالع وجهكِ بحب وكأنها المرة الأولى التي أراه بها..

أتأمل عينيكِ بشغف، سبحان من لونهما بلون ستائر كعبته!

بيت الله قبلتنا نحن، أما فؤادي فقد اتخذ من عينيك قبلة له.. آثم من رمز إلى اللون الأسود على أنه لون حداد وحزن، فكعبة الله سوداء، وعيناك عناوين فرحي ونشوة روحي..

جلستِ أمامي وبدأنا حديثنا:

ـ أما زلنا على اتفاقنا يا ليلك؟

ـ ألا تراني أحمل "الكمان" معي؟

تنهدت وأومأت برأسي موافقاً:

ـ لماذا تجيبين على أسئلتي دوماً بأسئلة أخرى؟

ـ ولماذا لم تلاحظ أنت الجواب لوحدك؟

عنيدة..

تابعتِ:

ـ على أية حال، آسفة على تأخري، كنت عند جارتنا أحاول التخفيف عنها قليلاً، فولدها الأصغر/آخر العنقود قد ذهب وسافر صباحاً.. المسكينة حزينة للغاية، لذلك اضطررت على التأخر.

ـ لا عليكِ، ولكن إلى أين سافر ؟

ـ كالكثير من الشباب، ليس لمكان محدد.

أتعجب كثيراً من أولئك الذين هاجروا وهجروا وطنهم، أحزن جداً على مدينتي التي هُجرت..

مدينتي الخضراء التي لطالما كانت بيتاً مضيافاً لسياح العالم في أوقات السلم، وملاذاً وحضناً حنوناً احتضن العديد من لاجئي الحرب.. مدينتي الخضراء باتت اليوم وحشاً في عيونهم، والهرب منها فرض عين على كل فرد..

صارت مدينتي فندقاً، في رأيهم، يغادرونها عندما ساءت فيها الخدمة، ولكنها ستبقى في عيني عاتكةً مهما بقيت متمنعة عن العطاء..

حب الوطن ليس ادعاء، حب الوطن عملٌ ثقيل.. ودليل حبي يا مدينتي سيشهد به الزمن الطويل..

صحيح أن وطني لم يعد يعطي كما عهدناه، ولكن لكل جواد كبوة، والشمس حتماً ستشرق مهما طال ظلام الليل لتزيل جهمته..

بلادي وإن جارت عليَّ عزيزةٌ.. ومدينتي ستبقى بقلبي عزيزة كما عرفتها أول مرة..

مدينتي الخضراء إدلب، أحبها رغم ما حدث بها، ورغماً عما سيحدث.. أحبها لأنني بها ولدت، وبها سأموت، وبأرضها أرض الشام سأبعث حياً..

تجيدين قراءة أفكاري بشدة، تخبرينني دوماً أنكِ تمتلكين حاسة سادسة لا تخيب أبداً.. تركتني بضع دقائق سارحاً في صمتي، شارداً وراء مخيلتي، ثم نطقتِ:

ـ بالله عليك أخبرني أنك كنت تفكر بفتاة أخرى ولا تقل لي أنك كنت جالساً على سنام الوطنية.

أجبتكِ ضاحكاً:

ـ أخبريني أولاً، كيف تعلمت قراءة الأفكار؟

ـ تكفيني نظرة واحدة إليك لأعرف بماذا تفكر.

ـ يعني "وافق شنٌّ طبقة" ؟

ـ بالضبط. صحيح، أخبرتني سابقاً أنك ستسرد لي قصة "وافق شن طبقة" ولكنك لم تفعل.

ـ حسناً.. سأفعل:

يقال هذا المثل دائماً عند اتفاق العقلاء، وحدوث الوفاق والتفاهم بين المتحابين والمتزوجين.. وللمثل قصة شهيرة وقعت مع رجل من دهاة العرب.

كان هناك رجلٌ من عقلاء العرب يدعى "شن". لما رغب في الزواج قال: "والله لأطوفنَّ حتى أجد امرأة مثلي أتزوجها"..

وبينما هو في مسيرة البحث، رافقه رجل في الطريق، فسأله شن عن وجهته، فقال الرجل: "موضع كذا.."

فرافقه شن حتى إذا سارا في طريقهما، قال للرجل:

ـ أتحملني أم أحملك؟

فقال له الرجل:

ـ يا جاهل، كلانا يركب دابته.. فكيف أحملك وكيف تحملني؟

سكت شن.

تابعا سيرهما حتى اقتربا من القرية المقصودة، وإذ بزرع قد استحصد، فقال شن للرجل:

ـ أترى هذا الزرع قد أُكل أم لا؟

ضحك الرجل بسخرية وقال له:

ـ يا جاهل، ترى نبتاً مستحصداً فتقول أُكل أم لا.

فسكت شن أيضاً ولم يرد على كلام الرجل.

وبعد فترة، وصلا إلى القرية فوجدا أمامهما جنازة، فقال شن:

ـ أترى صاحب النعش حياً أم ميتاً؟

تعجب الرجل من سؤاله، بيد أنه هذه المرة بقي صامتاً..

بعد أن وصلا إلى القرية رفض الرجل أن يترك شن حتى يصحبه معه إلى منزله، وكان له فتاة يقال لها "طبقة"..

ولما دخل أبوها عليها حدثها بما دار بينه وبين "شن" من حديث، فقالت:

ـ يا أبتِ ما هو بجاهل، أما قوله: أتحملني أم أحملك، فإنما يقصد به أتحدثني أم أحدثك حتى نقطع طريقنا ولا نشعر بطول المسافة..

وأما قوله: أترى هذا الزرع أُكل أم لا، فإنما قصد به أن أصحاب الزرع عليهم دين سيُوفى من ثمن الزرع أم لا..

وأما قوله في الجنازة، فقصد به هل ترك المتوفى ولداً يحيا بذكره أم لا.

ولما فطن الرجل لمقصد "شن"، خرج إليه وقعد معه وأخبره بجواب أسئلته التي طرحها عليه فيما سبق، فقال شن:

ـ ما هذا بكلامك، أخبرني من صاحبه؟

قال الرجل:

ـ ابنتي "طبقة".

فلما سمع "شن" بها ورأى رجاحة عقلها خطبها منه وزوجه الرجل إياها وحملها إلى أهله، فلما عرفوا رجاحة عقلها وذكاءها قالوا:

ـ "وافق شَنٌّ طبقة".

كنت تستمعين باهتمام شديد على غير العادة.. بإشارة من حاجبكِ علمت أنها أعجبتكِ فقلتِ:

ـ أتعلم، رغم كرهي لتاريخ عربنا إلا أنني أحب فصاحة العرب في الكلام!

ـ هكذا أنتِ، متناقضة جداً ومزاجية لأبعد الحدود.. أعطني سبباً واحداً يجعلك تكرهين تاريخنا.

استدرتِ بلا مبالاة وأمسكت بحقيبتك الجلدية/حقيبة الكمان:

ـ فيما بعد، دعني أغني لك أولاً.

تمسكين الكمان بين يديكِ الدافئتين فأشعر به يكاد أن يعزف لوحده خشية أن تجرح أوتاره أناملك.. تمسكينه بحنان أم وبخوف الأب، بضوء النجوم ونور القمر.

كملكة يعتلي رأسها تاج الحكم، كنتِ تفخرين حينما تضمينه وتشدينه إلى صدركِ، لم أسمع يوماً أعذب مما كنتِ تعزفين رغم عدم معرفتي بالذوق الموسيقي.

كنتِ تهبين تلك القطعة من الجماد روحاً ينتعش بها ويبدأ بالكلام فيعزف وكأنه يقول لكِ: " من أجلكِ يا سيدتي بُعثت، يا ملكتي وخالقتي، إليكِ يا من وهبتني أناملها مهجة

و وجـدان، تكفيـني سـبابتك لتفجـر في جـوفي بـراكين ملتهبـة من ألحان"..

أمـا بالنسـبة لي، فأنـا رجـل كـان يكتفـي بـالأدب فقـط ليخلـق السـعادة في نفسـه أثنـاء كتابتـه لأي شـيء؛ ولكنـني أصـبحت الآن مفتاحـاً تاسـعاً للسـلم الموسـيقي خاصـتكِ، ذاك الـذي يولد من رحم أناملكِ.

إن صـوتك يبعـث في داخلـي الـنفسَ والراحـة والاطمئنـان يـا ليلـك، يبعـثهم بأغنيـة سمعتهـا عشـرات المـرات دون أن أعيرهـا أدنى انتباه ولم أهرب إلى موئلها قط!

كانـت الكلمـات تخـرج مـن فمـك فتشـرق شمـس البهجـة في قلـبي، وتكسـو ألحانـك العذبـة قلـبي خضـاراً، تهطـل أمطـار الحب عليه فتنبت أزهار السعادة وتتراقص مع ريح الطرب.

كنـت أنظـر لـكِ بشـغفٍ وحـب شـديدين، كنـت كمـن يحلـم، وهـذا مـا حصـل.. فقـد أفقـت مـن حلمـي علـى وقـع دمعـة سقطت من مقلتكِ.

توقفتِ عن العزف والغناء، ومسحتِها بيدٍ مرتجفة.

نظـرتُ إليـك بشـيء مـن الخـوف، لقـد كـان ذات الهـاجس ينتـزع منـا لحظتنـا الراهنـة مـن جديـد.. شـيء مـن الانقبـاض يسـيطر على أيسر صدري، وأصداء الحيرة تصرخ في جوفي:

"ماذا يحصل!؟"

لقد حار فكري، إلى الآن لست أدري ما الذي يبكيك فجأة يا ليلك.

تبكين في نهايات مكالماتنا، في ذؤابات حبنا.. باتت الحيرة والشك تقطع نياط قلبي يا ليلك، وأخشى أن حدس العاشق لا يخيب، لا يخيب أبداً..

سألتك لماذا دمعتِ عيناك، فأجبتني بحديث عريض من النظر والصمت.. كررت السؤال مرة واثنتين وعشر، فتفاجأت بك تصرخين وتشتمين:

ـ هذا يكفي يا طارق.. يكفي لقد سئمت أسئلتك الغبية تلك.. لقد سئمت كل شيء.. سئمت منك يا طارق.

لم أقوَ على الجواب.. كنت مصدوماً محاطاً بجيوش الخيبة. لماذا أسألكِ في كل مرة؟ أهذا ما جعلك تصرخين وتشتمين، وماذا عن قلبي أنا؟

أحقاً تعتقدين تلك الأشياء مجرد فواصل ويجب علي تخطيها؟

كانت آخر جملة سمعتها في ذلك اليوم أنك سئمتِ مني ومن أسئلتي المتكررة تلك.. حذرتني من الاقتراب منكِ.. نعم، هكذا فجأة!

انصرفتِ وتركتني وحدي.. وحدي أنا عالقٌ بين السماء والأرض.. جليسي شبحٌ واحد فقط يصرخ في وجهي بكل برود:

"لقد رحلت ليلك.. رحلت وللأبد"

*

(٦)

أين يهرب قلبي من قلبي؟
أين يمكنني أن أفرّ هرباً من نفسي؟

سانت أوغستين

تظنين أنني أقوى مما أبدو، فقسوتِ عليَّ بأكثر مما تخيلتكِ أن تفعلي يوماً.

أوليسَ جزاء الإحسان هو الإحسان؟ ماذا فعلتُ أنا لتعاقبي قلبي بجريمة الفراق يا ليلك؟

أحببتك أكثر من نفسي.. أحببتكِ لدرجة أنني كنت أغربل كلماتي وأنتقيهنَّ قبل أن تنطق بها شفتاي خوفاً من أن أحزنك ولو لمرة واحد دون أن أشعر.. فكيف سئمتِ كلماتي؟

الغلط منكِ أنتِ، لطالما أبدعتِ بخلق الأسباب والذرائع لتغطي على برودكِ هذا، رغم ماكنتِ تفعلينه بي لم أكن

أطرق للكبرياء باب، وكنت من أبادر لربط حبل الوصال بيننا كلما أوشك على الإنقطاع.

كنت أقف دائماً على ناصية حبي وأقاتل الفراق بضراوة، ولكن هذا لم يزدني إلا جراحاً وأسى.

منهكٌ جداً، وعالقٌ على شفا حفرة، لا أنا بقادر على الصعود والعودة من جديد إلى الحافة ولا أستطيع التشبث أكثر.

أصبحت بين فكي الكماشة يا ليلك، بتُّ قاب قوسين أو أدنى من السقوط في قاعٍ خالٍ منكِ يا عزيزتي.

انتظرت يدك طويلاً على أمل أن تنتشلني من خيبتي، ولكن انتظاري ظل يتموضع بعناوين الخيبة حتى هويتُ إلى الأسفل، وإلى الآن أصرخ، ولم أرتطم بالقاع بعد.

لماذا، نحن العاشقين، نقتلُ من نحب بالاهتمام؟ أم أنها تهم باطلة يقدمها المدعي، وسيادة القدر يصدق وينطق بالحكم فيفرق بين الاثنين!؟

تباً لكٍ، وتباً لهم، فعنوان الحب هو الاهتمام، ومن دونه تسقط قوانين العشق وتفشل شريعة الغرام.

لا أدري لماذا يعتزم القدر على إيلامنا دائماً، أحاول أن أفهم دوماً، لماذا يتحول الحب وجعاً في معظم العلاقات؟

لستُ أدرك إذا ما كان الجواب هو أن وجع الحب حتمية علينا، أم أننا نحن من نصنع تلك الدروب ونسلكها بأنفسنا.

يصدق الشاب فتخذله الفتاة، تصدق الفتاة فيخذلها الشاب.. قليلون من يصدقون سوياً، حتى وإن حصل، ستكشر لهم الأيام عن أنيابها وتسلمهم للقدر الذي بدوره سيقطعهم بسكاكين الفراق ويهدي جثامينهم إلى مقابر الخيبات.

ذكرياتنا التي تقاسمناها يا ليلك وكانت سراً في إسعادنا باتت الآن تنخر قلبي، كلما أرجعتها إلى ذاكرتي بدأت بالنزيف ألماً وشوقاً وحنيناً..

لقد أصبحت أوقات حبنا تواريخاً تطالعني في كل عام لتخبرني بسخرية واستخفاف أنه في مثل هذا اليوم تلاقينا، وفي ذاك التاريخ تعانقنا لأول مرة..

في مثل هذا اليوم وقعت أول معركة في محراب شفتيها، وفي آخر يومٍ من ديسمبر كان يوم مقتلي أنا، يوم مقتلي حين افترقنا يا ليلك.

جميع تلك التواريخ نسجت خيوطها في ذاكرتي.. كلما طالعتها أحسست بغصة تكاد تقتلع حنجرتي.

يدفعني الحنين للسير رغماً عني إلى أماكننا، تلك الشجرة أضحت فاقدة نضرتها مذ هجرناها وكأن أغصانها تبكي على رحيلك يا صغيرتي..

ذلك الطريق الذي اعتاد على خطانا وهي تجوله ذهاباً وإياباً يخبرني بألم أنه يفتقدنا.. يفتقدكِ جداً يا ليلك.

ما زلت أضعف من أزيل تلك الأشياء من قعر ذاكرتي، سأصدقك القول: أنا لا أستطيع أبداً، فما زالت أعسانكِ هي وجهتي في كل مرة أشتاقكِ بها.

*

انقضى شهران على آخر لقاء بيننا، دهران حاولت خلال أيامه إعادتكِ إلي، ولكنني كنت أفشل في كل مرة.

المؤلم أنني كنت لا أجرؤ على أن أبوء لنفسي بذلك الفشل، بقيتُ هائماً في وهم عودتك، ولكن محاولاتي ظلت تنزف وتنزف حتى بدأت أمارات الخيبة تلوح في الأفق.

محاولاتي في أن أعيدكِ لصدري كانت أشبه بمن يعطي نبضاً كهربائياً لجثة هامدة، ثلاث محاولات بلا استجابة تعني أنه لا أمل، أما أنا فحاولت العشرات حتى فقدت ذلك الأمل.

ما زلت أذكر صوتكِ يومها، كيف تمكنتِ من نطقها!

كيف استطعت إفلات يدي رغم معرفتكِ بأني سأقع في الهاوية؟ اتصلت بي بعد خمسة أيام من آخر لقاء، أخبرتني أنك مرغمة على الابتعاد عني، ولكنك لم تجيدي إدلاء ذريعة قوية عندما سألتكِ لماذا.

ما الذي تعنيه بكلمة "تعبت"؟ ما الذي فعلته حتى أتعبتكِ يا كل راحتي؟

ولكن، كما هي العادة، آثرتِ الصمت والبكاء ورحلتِ لتتركيني وحدي أصارع أوجاعي وأحاول بخيبة مجاراة أيامي.

أفتقدكِ يا شتاء قلبي..

أقفُ وحيداً على تلة يأس في وسط صحراء غيابك وأحدق إلى السماء، أترقب غيمة واحدة تنبئني على اقتراب هطولك ولكنني أزداد عطشاً وخيبة كلما طال بي الوقوف..

أغمض عيني وأحلم بلحظة تملئين بها ذاك الفراغ الذي تركتهِ في صدري، يطول الحلم حتى يتحول إلى أمطار من شظايا تنهال على طرقات قلبي، فتصير سيولاً تجرف معها كل دروب العيش.

يتحول حلمي إلى حبل يلتف على عنق السعادة، إلى سجن يضيق عليَّ، وسجان يجلدني بسوط الذكرى..

تعالي وانتشليني من تلك اللجة، فأنت شتاء قلبي وبين ضلوعك يكون دفئي..

تعالي يا ملاكي وزملي صدري بأجنحتكِ، تعالي ودثريني بعناق ينسيني زمهرير الأيام التي قضيتها من دونك، خذيني إليكِ فسفينتي محطمة وأشرعتي ممزقة وزعانف الإبحار مقهورة.

أعيديني إلى نفسي عن طريق خرائط عينيكِ، كفاني ضياعاً في هذه الحياة.

تتوسد أحلامي طرق عينيكِ، بيد أنني أضعت الخارطة، فصرت أسير متخبطاً حائراً ضائعاً بلا اتجاهات..

بتولٌ كان قلبي، وغيابك فضَّ بكارته.

اختفيتِ هكذا فجأة ولم يعد لك أثراً أستدل به إليك، كقطعة سكر ذابت في وسط البحر..

كان البحث عنك أشبه بالبحث عن إبرة في جبل من القش، ومع ذلك بحثت عنك دون ملل، ولكنكِ ابتعدتِ جداً يا ليلك.. حساباتكِ على مواقع التواصل الاجتماعي اختفت، رقمكِ الذي كنت أحفظه أكثر من اسمي أصبح خارج الخدمة.

صديقاتكِ، جيرانكم في الحي، جميعهم لم يطفئوا لهيب النار التي تأكل وتلتهم صدري.

عليلٌ أنا وفي أمسّ الحاجة لرؤيتك ولو من بعيد، ولكنني لم أعد أراكِ لا بقصد ولا عن طريق المصادفة.. حتى في الجامعة لم يعد لك أثراً يا ليلك.

أهنئكِ على انتصارك في لعبة الغياب، أهنئك على إتقانك دور البطلة في مسرحية الفراق تلك وأعزي نفسي أنا ببقايا أوراق ورسائل منك مازالت تحمل رائحتكِ وخطكِ.

تعود كلماتكِ إلى ذاكرتي، كلماتك تلك التي أتقنتِ كذبها عليّ.. قلتِ لي لن أتخلَّ عنك، ولكنكِ تخليتِ وأفلت يدي في منتصف الطريق.

قلتِ لن أجعل لرأسي وسادة غير كتفك، ولكنكِ هجرته وتركت حشائش الوحشة تتكاثف فوقه.

أقسمتِ أنكِ لن تفارقيني أبداً، ولكنني نسيت أن كلَّ حلَّاف كذاب يا ليلك.

*

(٧)

هذي الروح تشتاق إليك..
هذي الروح لك تشتاق..
ومضيتَ وكأنما أعجبك الفراق..
وتركتَ الذي كان بيننا للنار والاحتراق..
هي الروح.. تشتاق..

لفظتِني من رحم حبكِ فتدهورت، تعثرت، فوقعت، ومن ثم بدأت بالنزيف ألماً.

تُركت وحدي، فلم أجد جليساً غير كلمات تلك الأغنية – هذي الروح تشتاق إليك– تنتزعني من مكاني، بيد أنها كانت تؤلم روحي جداً يا ليلك.

صوتها يصدح في فراغ غرفتي، وأفكار تدور فوق رأسي وتصرخ:

"لماذا أعرضت عني!؟"

الوحدة دميمة جداً يا ليلك، مخالبها تنهش أرواحنا في كل ليلة، وأنيابها تقطع ما تبقى من أجسادنا بكل وضاعة!

لو أنها تفتك بي، لو أنها ترميني برصاصتها الأخيرة، فأنا في أمس الحاجة لرصاصة الرحمة تلك، ولكنها تفعل بي ما هو أقبح.. ترغمني على الاعتكاف منبوذاً لوحدي، تقتل حواسي بكل ما أوتيَت من إجرام، تجبرني على الإحجام عن الطعام وتفتح شراهتي على التدخين فقط.

سمعتها ذات مرة وهي تحدث سيجارتي:

" يا سيجارة أبيديه، بثي بسرطانك داخل جسده"

والمضحك أنه أنا من يلبي ذاك الطلب.

مريضٌ بكِ أنا يا ليلك، وأما قواي فقد خارت أمام سيوف الوحدة..

الوحدة يا ليلك من أصعب الأشياء التي قد يمر بها الإنسان، هي من الأشياء القليلة التي تدفع أحد ما على الانتحار، ولكنني ما زلت صامداً أمام طغيانها وأقاوم رغبتي المجنونة تلك.

الوحدة ذئب يتضور جوعاً ينهش بأجسادنا، وليس ثمة شيء غير الروح يروي ظمأها.. الروح التي لا ترى بالعين ولا تُستشعر بالحواس؛ لو أستطيع إمساكها وانتزاعها مني وتقديمها قرباناً لذلك الذئب لعلي ألتمس بعدها شيئاً من راحتي.

ولكنها الروح يا ليلك، تلك التي تتألم دون أن تصرخ، تنزف دون أن تُجرح، تتلقى الكدمات دون أن يبقى عليها أيُّ ندب.. تستمر في احتراقها دون أن تصير رماداً، وتبقى في ألمها وأنينها ونزفها إلى أن يشاء الله فيعطف عليها ويستوفيها..

تلك هي الروح، وهذه الروح يا ليلك لكِ تشتاق.

توعكت روحي وليس ثمة ما يشفي عليلها سواكِ.. جربت النبيذ فلم يزدني إلا عطشاً للنبيذ في شفتيكِ، والخمر لم يجعلني إلا أن أكتب لكِ بأ لم أكبر..

حبوب؟ مخدرات؟ صدقيني لم تعبر إلى معدتي قط، جميعها احتجزت في حنجرتي وظلت عالقة مع تلك الغصة..

الحشيش؟ أقسم أنه لم يجعلني إلا أن أنفصم أكثر، أن أنفصم وأنفصل عن الواقع لأيام طويلة وساعات مديدة خلال يوم واحد فقط!

نازعتني نفسي إليكِ فلم أجد جسراً غير الكتابة كي أعبر إليك من خلاله.

ألستِ أنتِ من أخبرتني أن أتعاطى الذكريات كي أبقى على قيد الحياة؟

حسناً، على الرغم من أنها تدمي قلبي يا ليلك إلا أنني أكتبها الآن مرة أخرى، حسبي أني أراكِ في سطرٍ ما أو في نهاية جملة مرة أخرى.. حسبي أني أعاود النظر من خلالها إلى عينيكِ من جديد..

ذلك الحب لو أني خيّرتُ في أن أعيشه من جديد لكررته ورضيت بذلك رغم معرفتي بنهاية تلك الفاجعة.

وحيدٌ أنا يا ليلك، كوكبٌ خالٍ من تفاصيلكِ لا يغريني على حب البقاء والعيش فيه أبداً.

*

امتلكتني تلك اللجة، ضجيج وأصوات، أصبحت أنا الآن صوت بوق الحافلة التي تسير الآن أسفل شرفتي المكتظة بالضجيج، آلاف الأصوات تصدح في رأسي ولا أقوى على إسكاتها.

هناك، في منتصف غرفتي، يجلس "رمادي اللون"، يبكي معي ثم فجأة يبتسم، تارة يصرخ بألم وأخرى يضحك بجنون.

يدندن أغانٍ لا أفهمها، يشعل السجائر وينفث الدخان في جوفي، إني أختنق، وأحترق..

علـى يمينـه حديقـة، أشـجارها مألوفـة جـداً بالنسـبة لي، أرى نفسـي جالسـاً علـى أحـد المقاعـد متجـاهلاً مـن يحـاول استفزازي بصوت "القداحة".

أحـاول أن أتجاهلـه، ألا أركـز وأسمـع صـوته.. أضـع كفـي علـى إذني وأصرخ بقوة:

ـ اخرس!

ما من مجيب، ما من أحد.

ثم فجـأة، يقـف أمـامي حـارس في الأربعـين مـن عمـره، مـن ملابسـه أدركـت أنـه المسؤول عـن أمـن الحديقـة، يـأمرني بالمغـادرة حالاً.. يشبهني، كأنه أنا عندما أكبر!

أسأله بخوف بسيط لا أدري ماهيته:

ـ لماذا عليَّ أن أغادر؟

بلا مبالاة يجيب:

ـ الحديقـة مغلقـة، آن لهـا أن تغلـق للأبـد.. سـنقطع الأشجار، ونحولها إلى مقبرة.

بتعجب واستغراب شديدين سألته:

ـ مقبرة!؟

ـ نعم.. مقبرة.

ـ ولماذا؟ .. سألته أنا، فصرخ بوجهي قائلاً:

ـ اغرب من هنا ولا تأتِ مطلقاً.. ألم يتعفن قلبك من روائح الجثث؟ ألم يتعفن صدرك مما حصل؟

ـ ولكن عن ماذا تتحدث!؟

اختفى فجأة.. لا إجابة!

تباً، أين أنا!؟

جثث من؟ عفن ماذا؟

لم أفهم شيئاً مما قال، فخرجت منها خائفاً مرتعشاً من هول ما مررت به.. كنت خائفاً من صوته، صوته وكأنه صوت رعد في ليلة حالكة السواد لا برق في سمائها!

ولكن لحظة، لقد عرفت مكلمي، إنه أنا، أو رمادي اللون!

لا تتعجبي يا ليلك، لم أجن بعد، أو ربما جننت.. سأحدثك عنه لاحقاً..

المحزن أني خرجت من تلك الحديقة مرغماً وما بيدي حيلة.. فهو من أمرني.. أردت أن أقول له أن هناك شجرة كانت تظللنا بفيئها فلا تقطعوها.. شجرة قد نقشنا عليها أسمائنا فاتركوها..

هناك زرعنا أشتال من ورد الليلك، دعوني أذهب وأجلس فوقها، أسقيها بمياه عينيَّ فأراها تكبر يوماً وراء يوم لعلها تغنيني عن ليلكي ولو بشيء قليل.

ولكـــن، آه وألـــف آه.. فقـــد قُطعـــت تلـــك الشـــجرة، حرقـــت الحشـــائش وهـــي خضـــراء.. نُبشـــت ورود الليلـــك و رُميـــت حـــتى ذبلـــت وحيـــدة علـــى قارعـــة الطريـــق.. ورود الليلـــك مـــا عـــادت موجودة.

اختفـت تلـك الحديقـة وكأنهـا لم تكـن، كـل مـا أراه مـن موضـعي هذا هو أرض بور يكسوها الرماد.

*

بـابٌ في رأسـي يُطـرق، لحـنٌ مخيـف يُعـزف في داخلـي، أخشـى فـتح البـاب لأنـني أعلـم تمامـاً مـن هـو القـادم، ولا قـدرة لي على التماسك أمام رهبته.

لم يكـن بأحـدٍ غريـب، فقـد كـان "أنـا" هـو الطـارق.. لم أخـبرك بعـد، ولكنـه اعتـاد زيـارتي مـؤخراً، وللحقيقـة كنـت قـد اعتـدت وجوده أيضاً.

يجلـــس أمـــامي الآن، رغمـــاً عـــني أو بـــإرادتي، لا يمكنـــني التحديد.. ولكنه يضحك بشماتة كلما رآني ضعيفاً.

صـوته الوحيـد الـذي لم أعتـد عليـه، مخيـف جـداً كمـا أخبرتـكِ منـذ قليـل.. هـو أنـا، أو ربمـا أنـا مـن أصـبح هـو.. لا أدري كيـف سأشـرح لـك عـن الأمـر لأنـه لـن يفهـم ذلـك إلا مـن عانى من ذات الشعور..

لا أدري لماذا يجالسني الآن. أهو بجانبي ليخفف عني حقاً أم ليشمت بي أكثر كما اعتاد أن يفعل؟

اللعين يقرأ أفكاري، ودائماً ما كان يبدأ بالحديث:

_أخبرك للمرة الألف أنني هنا كي أنقذك لا لكي أشمت بك أو لأخفف عنك.

_ ومن أنت لتنقذني؟ قلتُ له.. ابتعد من أمامي أرجوك اذهب.

_ هه، لن أبرح مكاني طالما أنك هكذا، وإذا اضطر الأمر سأجلدك وأعذبك، أنا لا أمانع.

أطلق جملته الأخيرة وتركها عالقة في الهواء تاركاً لي فاصلاً زمنياً قبل أن أجيب.

_ أنا لا أفهمك، قلبك عليَّ وستنقذني أم أنك ستجلدني وتعذبني!؟

كشر عن أنيابه بابتسامة شريرة:

_ حاول أن تفهم لماذا يضرب الأب ولده إذا رسب في فصله الدراسي.

_ لكنك لست والدي.. أنا لا أريدك، وجودك يخيفني أكثر.

نهض من على كرسيه وراح باتجاه المكتبة.. أمسك بيده حجراً من قطع "الشطرنج" وأجاب:

ـ نعم، والولد لا يحبذ الدراسة، لكنه مجبر على تقبلها، ومجبر على تحمل ألم السوط إن أخفق بها.

ـ أنت مجنون يا هذا !

ـ بل أعقل مما تتخيل. أخبرني يا ولد، لماذا تخاف مني؟ هل تراني أؤذيك؟

حدجته بنظرة شبه مطمئنة:

ـ صحيح أنني أخاف منك، ولكن السبب ليس بمظهرك أو حتى بظهورك وتجسدك أمامي.. ولكن ربما أخافك لأن وجودك يعني إصابتي بجنون.. أوف، لا أدري، حقاً أنا لا أدري.

تقدم مني بحذر.. وضع يده على كتفي ونطق:

ـ هون عليك يا ولد.. هون عليك.

ـ أخبرني.. لماذا تبدو قبيحاً هكذا؟

ضحك وضحك حتى دمعت عيناه:

ـ يا رجل! أحقاً تراني قبيحاً؟

ـ على يمينك يوجد مرآة.. انظر بنفسك واحكم.

فكر قليلاً ثم أجاب:

ـ لا داعي لذلك، فأنا المرآة.

بلا تفكير سألت:

ـ لم أفهم، ماذا تقصد!؟

ـ أما بالنسبة لأن تفهم أو لا فهو غير مهم.. المهم أن تستمع لي وتنفذ ما أقوله لك.

استسلمت له أخيراً، فقد كان أعند منك بألف مرة يا ليلك!

ـ حسناً، أسمعك.. ماذا تريد؟

رمى حجر "الشطرنج" الذي كانت يداه تعبثان به على الأريكة.. جلس مقابلي وقال:

ـ لماذا أنت حزين لأنهم قطعوا أشجار الحديقة وأحرقوها؟

ـ لأنها الشيء الوحيد الجميل الذي بقي عالقاً بي.

ـ ولكنك أنت من اتخذ خطوة جريئة وقمت بإحراقها، أهنئك على ذلك.

تعجبت:

ـ لم أحرقها أنا، هم من فعلوا!

أخرج من جيب معطفه الطويل علبة سجائر، أشعل سيجارة وأخذ منها نفساً عميق.

ـ اسمع يا طارق.. إن ذكرياتك الجميلة التي عشتها مع ليلك تتجسد بتلك الحديقة وأشجارها.. ذاك الخضار هو

الأيام الجميلة التي قضيتها معها، وزهور الليلك هي كل ما تصادفه ويذكرك بها يا مغفل.

تناول كأس المياه من على الطاولة وازدرده دفعة واحدة وأكمل:

ـ الأمور أعقد مما تظن وأصعب من أن يستوعبه عقلك البشري، الأمور تحدث في عقلك الباطن، في ذاكرتك الثانية، ولكنني أستطيع أن أوضح لك الأمر بمثال بسيط.

ـ أسمعك.

ـ إن علاقات الحب تشبه بماهيتها الأبنية السكنية، على سبيل المثال. أبنية سكنية نشيدها في داخلنا وندخل بها من تختاره قلوبنا. ولكن في النهاية لا أحد يبقى، لا أحد يدوم. سيحين ذات يوم موعد الرحيل.

نهض وجلس بجواري مرة أخرى، أمسك بيدي وأكمل:

ـ حينما يحين موعد الرحيل، يهجرون ذاك المسكن.. هم يذهبون، ولكن البناء باقٍ لا يذهب، لا يزول.. بيد أن بقاؤه أمر خطير جداً، يؤثر سلباً على نفسك. ستتخطو رغماً عنك كل يومٍ إلى ذلك البناء وتبكي على أطلاله أحبَّةً قد رحلوا.. الأمر بسيط جداً، اهدمه أنت.. اهدمه بقوتك، بثقتك بنفسك، تجاوز ذلك ولو كان الأمر متعلق بالحب..

اسمع يا طارق، إياك والوقوع في الحب من جديد، إياك أن تحب أحداً إلا المرأة التي ستتزوجها.. إياك أن تحبها قبل الزواج، اتركه لبعد الزواج.. أحذرك يا طارق، إياك والوقوع في الحب من جديد قبل أن تتزوج.

صدقني يا طارق، لست هنا إلا من أجلك أنت، من أجلك فقط.. أتعلم، سأخبرك سراً.. إن أمثالي شريرون، أمثالي حمقى يدفعون أصحابهم لارتكاب حماقات قد تودي بهم للانتحار والموت، ولكنني هنا من أجلك.

لم أتمالك نفسي ورحت أبكي بحرقة وألم، ضمني إلى صدره وأخذ يمسح بيده على رأسي وهو يقول:

ـ هون عليك يا طارق.

ولكنني ازددت بكاءً حتى صرخ بي كي أعود إلى رشدي وتابع:

ـ بقاؤك حبيساً بين جدران تلك الحديقة هو قهر لك ومضيعة للوقت، بقاؤك هكذا سيسمح لضعفك بالتمرد عليك أكثر، وأن يحرق أشجار قلبك أنت، وستتحول فيما بعد إلى رماد مقابر. نظرت إلى ساعتي، كانت تتجاوز الواحدة صباحاً.. أفلت زر قميصي العلوي فقد أحسست

بنفسي أختنق. حتى الآن ما زلت حريصاً ولم أقل له ما يشعل ثورته من جديد. فقلت له:

ـ لو كنت مكاني لما أنبتني ووبختني هكذا.

ـ على العكس تماماً.. كان يتوجب عليك أن تهجر المكان منذ أن طُردت أول مرة، والذي طردك لم يكن حارساً عادياً. إنه ضميرك يا طارق، أو ربما هي نفسك الخيرة تحاول أن تعيدك لما كنت عليه من قبل فلا تتجاهل ذاك النداء.

أشعل سيجارة ثانية وأكمل:

ـ كان يجب عليك أن تتجاهل وجود تلك الحديقة أصلاً وتعود لحديقتك الأولى، تلك التي كنت تعيش بها قبل وجود ليلك.. أوافقك الرأي، قد يكون الأمر صعباً ولكنه ليس مستحيلاً.

أنا أشعر بك، أشعر بألمك، أتألم على ألمك، ولكنك تظلم نفسك كثيراً فتحرق قلبك وتقتل نفسك الجميلة دون أن تدري.. يمكنك حل الأمر بأسرع مما تظن.

ـ وكيف ذلك؟

ـ تزوج، لماذا لا تتزوج؟

صمتت ولم أنبس ببنت شفة، عيناي من نبست بحرقة فقط.

أردف قائلاً:

ـ أكرر فاسمع يا طارق.. أنا هنا من أجلك وأنا لست قبيحاً كما تراني، كل ما في الأمر أنني مرآة لك أنت، فعندما تتحسن أنت وتكون جميلاً سأكون مثلك.

حاول أن تجمل نفسك لتراني صديقاً لك، ولكنك إن بقيت هكذا فسأقتلك حتماً.. ذلك ليس بتهديد أبداً، ولكنني أخبرتك، أنا مرآة لك فقط لا أكثر ولا أقل، وكما تراني سأراك.

خيم الصمت دقائق قليلة علينا بدأت بها أفكر بكلامه، قد يكون على حق، ولكنني أخاف من تقبل فكرة الزواج تلك ونسيانك يا ليلك.. قد يكون الأمر أسهل مما أظن، ولكنني أرفض نسيانك بشدة. سألته:

ـ أتزوج؟

ـ نعم، حتى لو لم تنسَ ما قد مضى، على الأقل ستعتاد على ذلك فيما بعد، سيتخدر الألم في جسدك ويتبلد، وستكون اهتماماتك منصبة على زوجتك لا على المرأة التي قتلتك.

إنه على حق.. لا مجال للنقاش. أشعلت سيجارة بدوري ورحت أنفث سمها في فناء غرفتي متفكراً في فكرة الزواج تلك، بيد أن فكرة واحدة كانت تهيمن على تفكيري:

ـ أنت تقنعني بكلامك، ولكن ألا يعتبر في الأمر خيانة؟ فأنا للآن لم أسمع شيئاً عنها ولا عن مكانها، قد يكون لها ظروفاً وستعود.

وكأنني صببت زيتاً مغلياً على بركان من النار، كان على وشك الغليان والانفجار في وجهي، ولكنه تمالك نفسه في اللحظة الأخيرة:

ـ خيانة لمن؟ تباً! لو أرادتك لأتتك زحفاً، طيراناً.. لو أرادتك لوجدت ألف طريقة لتصل إليك!

كان على حق، لا مجال كي أشكك في الأمر.. ولكن فجأة، قفزت في رأسي صورة جديدة لم تكن في الحسبان.. لمعت عيناي فوراً، نظرت إليه وقلت له:

ـ ما رأيك بها؟

ـ لا بأس بها، وقد تكون الخيار الأفضل لك الآن.

ـ أعرفت من أقصد يا هذا ؟

نظر لي نظرة ضاحكة وقال:

ـ طبعاً ليست ليلك، أنت تقصد فتون.

صعقني من هول المفاجأة.

ـ يا لك من لعين، كيف عرفتها؟

ـ لا تنسَ أنني منك، وأنت مني.

ـ هـه صـحيح، كـدت أنسـى.. برأيـك، مـا هـي الخطـوة الأولى التي عليَّ أن أخطوها؟

ـ أن تسـتخير الله، والخـيرة في مـا سـيختاره لـك والبـاقي عليك أنت، عجل بها يا طارق، أما أنا فسأذهب الآن.

*

(٨)

نحن بطيؤون في تصديق ما يصعب تصديقه.

أوفيد

يُعرف العديد من الفلاسفة الذكاء على أنه قدرة الشخص على التأقلم مع البيئة الجديدة التي قد يُجبر على عيشها..

سمعت هذا التعريف في إحدى المحاضرات الدراسية ذات يوم، وأيدت فكرته، إلا أنني الآن اكتشفت طرفها الآخر، فلكل قاعدة استثناء، وأنتِ استثنائي يا ليلك..

أشعر وكأني أحمل قلب أنثى بين ضلوعي، قلب ضعيف يجبرني على السير رغماً عني، أحاول أن أتعايش مع البيئة الجديدة التي أُرغمت على السير في خطاها ولكنني أفتقدك بشدة، وأشعر أنني لا أقدر على الوصول للضفة الآمنة.

أشعر وكأن تلك الفجوة في صدري تكبر يوماً وراء آخر، فأخشى أن أفقد السيطرة عليها ويصل الأمر إلى تناثري.

أجلس منزوياً في غرفتي ورأسي متكور بين ركبتي، يتراءى لي طيفكِ فيزداد بكائي كطفلٍ صغير ضلَّ عن والدته، فقد مرت الأيام وما زلت لا أقوى على انتشالك من قلبي، مرت الليالي وما زال قلبي يضخ الألم والأسى ليجبر كل جزء مني على بكائك..

سنتان، ينقصهما شهراً، قد مضتا على فراقنا وما زلت أعزي قلبي المفجوع على فقدك، كنت أكذب على قلبي وأخبره يومياً أنها مدة وستنقضي، بيد أن الأمور باتت تزداد سوءاً مع سير الأيام..

ازدادت أيامي ألماً ووحشة ووحدة فاختليت وحزني، وها قد مضى على اعتكافنا عشرون يوماً..

هاتفي مغلق منذ أكثر من أسبوع ولا أحد يعلم شيئاً عني، فقد كان كرم مسافراً حينها إلى مدينة حلب ليكمل امتحاناته.. حتى والدي لم أكلمهما منذ آخر مرة كنت فيها نشطاً على شبكة الإنترنت، منذ سبعة أيام بالتمام، فقد كانا يقطنان في مدينة حماه منذ أكثر من سنة بعد أن اشتدت أوار الحرب في إدلب.

أشعر بمزيج من الحزن والألم يلتهم روحي.. فأمسك صورة تجمعنا سوياً، أطالعها بصمت، بعينين ممتلئتين بالعبرات وسرعان ما تهطل دموعي عليها لتجرف معها أشجار السعادة من قلبي وتجتثُّ حشائش البهجة من روحي.

أقف على قارعة الطريق، طريقنا أنا وأنتِ، وأرقب مجيئك، أتفحص وجوه المارين *كطفلٍ يتيمٍ ينتظر عودة والدته، الكل يخبره أنها لن تعود وهو يرفض تصديقهم..*

وحيدٌ جداً، وحدها السجائر باتت تراقص أوجاعي وتطبطب على أكتافي.

*

ذات ليلة من ليالي الاعتكاف تلك، فجأة وبين الحقيقة والخيال، ظهر شبح أمامي، كأنه صورة عني، وهنا كانت بداية جنوني.

كان يطير فوقي بثبات وينظر لي بعينين يتطاير منهما شرراً، وكأنني قمت بمضايقة زوجته!

لبرهة اعتقدت أنني أحلم، بيد أن كل شيء حولي يبرهن أنني كنت في كامل يقظتي.. تكات الساعة، صوت المطر، وأشياء أخرى كانت تثبت لي أنني لا أحلم.

تنبهت حواسي ووقف شعر جسدي كاملاً، ارتعشت من الخوف وأسناني باتت تصطكُّ من هول المنظر.. عقلي متوقف عن العمل وكأنه أصيب بشلل تام، أما ضربات قلبي فقد كانت تطرش أذني!

تمالكت نفسي بعض الشيء وسألته برعب وخوف شديدين:

ـ من أنت!؟

أجابني بصوته المرعب، ذلك الصوت الذي يشبه صوت الرعد:

ـ بل أخبرني، من أنت !

لمجرد سماع صوته، أحسست أنني أغيب عن وعيي شيئاً فشيئاً.. هو حتماً جني أو شيطان، إنه يكلمني، ولكنه "أنا"، نسخة عني!

تابع قائلاً:

ـ أحقاً أنت طارق؟ طارق الذي كانت كل اهتماماته هي أن ينتصر على صديقه في "البلاي ستيشن"؟ طارق الذي كان ينتظر مباريات "دوري أبطال أوروبا" أكثر من أن يذكر موعد امتحاناته؟ طارق الذي كانت تختلط عليه أسماء النساء من كثرتهن ينعزل الآن وحيداً ومن أجل امرأة!؟

ارتبط لساني ولم أقدر على الكلام.. وآخر شيء سمعته هو صوت ارتطام جسدي على الأرض مصعوقاً مغمياً عليّ.

عندما أفقت من غيبوبتي في صباح اليوم التالي كان أول شيء تذكرته هو ما دار بيني وبين "رمادي اللون" ذاك من حوار.

كنت واثقاً أن ما جرى لم يكن حلماً، اختلطت الأمور علي..

بقيت أتصارع مع أفكاري حتى انتصف الليل وهبطت معه الذكريات المؤلمة.. حفلة السجائر/سجائر الحشيش بدأت، وبدأ النحيب معها، وشريط الذكريات يعرض في سينما رأسي.. طيفكِ جالسٌ أمامي، وشاحك يدثر آلامي، روحي تصرخ بألم، وعيني تفيض بحرقة.

وبينما كنت جالساً في حالتي تلك، حدث ما حدث ليلة أمس.. ظهر ذلك الشبح مرة أخرى، ظهر من بين ثنايا الظلام ليعاود الطيران فوقي والنظر لي بغضب من جديد.

كانت الصدمة أخف وطأة عليَّ، لو كان يريد أن يلحق بي ضرراً أو أذى لفعل البارحة..

التقطت أنفاسي، وانتظرت قلبي ليستعيد الاستقرار في نبضه، رفعت رأسي ونظرت لعينيه مباشرة.. يا إلهي كم هو قبيح!

ـ من أنت!؟

أجابني:

ـ بل أنت أخبرني.. من أنت؟

تباً.. انعقد لساني.

أردف قائلاً ما تلاه علي البارحة من توبيخ.. نفس المظهر، نفس الحوار، ولكن في هذه المرة لم أسقط مغشياً علي، بل نظرت إليه أتأمله أكثر، شبح هو أو ربما طيف.. يشبهني جداً، وكأنه شقي التوءم.. لا شيء أكثر!

سألته بخوف:

ـ ماذا تريد مني؟

ـ أريدك أن تعود.

ـ إلى أين؟

ـ إلى نفسك.

متعجباً سألت:

ـ لم أفهم!

أجابني بتنهيدة تنم عن غضبه:

ـ ببساطة لأنك مغفل.

ضحكت على جوابه:

ـمغفل! لماذا؟ لم يجبني، هبط أمامي واقترب مني أكثر فأكثر؛ وضع يديه على كتفي وبدأ يهزني ويصرخ بنبرة موبخة لم أفهم منها شيئاً بسبب الرعب الذي دبَّ في قلبي لحظتها..

صرخت بدوري، ولكن بخوف، حتى فقدت وعيي من جديد.

*

لم أبرح سريري في صباح اليوم التالي وكلي خوف في أن يعاود زيارتي رمادي اللون من جديد..

كنت في أمس الحاجة لأن أقابل أحداً وأتحدث إليه فاعتكافي وحيداً لم يزدني إلا خوفاً وألماً.. ليتك هنا يا كرم.

فجأة تذكرت رامي، لا بد لي من مقابلته، حتماً سأجد في حديثه ما يريح بالي ولو بقدر كف من العدس.

نهضت من على سريري بتململ، أشعلت جهاز "الراوتر"..

أمسكت هاتفي واتصلت بشبكة "الواي-فاي"..

عشرات، بل مئات الرسائل كانت تنهال إليه أكثرها من والدتي التي كانت ستفقد عقلها من شدة الخوف والفزع علي، خصيصاً وأنه خلال تلك الفترة التي غبت فيها لم يهدأ

القصف علينا إلا عندما ترمي الطائرات حمولتها وترجع لتعبئ حمولة جديدة ومن ثم تعيد الكرة..

تحدثت معها، أخبرتها أنني بخير وأن حَينا ما زال بخير.. أخبرتها أن كل ما في الأمر هو موجة اكتئاب وستزول، ولكنها لم تقتنع وقالت:

ـ دواؤك عندي، على كل حال لقد فتحوا الطريق "حماة- إدلب".. والدك سيأتي غداً أو بعد غد على الأكثر، فهنالك ما سيتحدث به معك.

وكأنني فهمت ماذا يريدان، ولكنني لم أعلق.

أنهيت المكالمة وأرسلت لرامي رسالة صوتية أخبرته بها أن يأتي لزيارتي فوراً.

تصفحت "الفيس بوك" و "الإنستاغرام" بسرعة، ولكن بلا شعور وجدت نفسي أبحث عن اسم حسابك الشخصي، للأسف لا شيء تغير طوال السنتين.. لم يعد لكِ أثراً يا ليلك.

*

قبل الزوال بقليل، كان رامي يجلس قبالتي مذهولاً لمظهري.. أخبرته بما يحصل لي.

لم ينطق حرفاً واحداً، وظلت عيناه معلقتين على الجدار، طال صمته قرابة ربع الساعة، وأخيراً نطق:

ـ أخشى أن ما تعيشه يا طارق ليس وهماً.

سألته بتعجب:

ـ ماذا تقصد؟

أجابني باستنكار:

ـ وليس حقيقياً على أية حال. هنالك شبح يزورك بتكرار وأنت تراه وتتحدث معه أيضاً هذا حقيقي، ولكن الوجه الآخر هو أنه لا وجود لذلك الشيء.

بقينا صامتين كلانا ينظر للآخر. أحاول استيعاب ما قاله لي، ولكن عقلي لم يقوَ على التفسير. فتابع قائلاً:

ـ ما تراه هو كالمرآة، تعكس لك ما تراه عليها، ولكن مرآتك تلك تعكس لك ما يدور في ذهنك دون أن تعطي الأمر على ذلك.

ـ لا تحادثني بأمور الفلسفة، كن واضحاً أكثر.

ـ هل سمعت من قبل بمرض "الشيزوفرينيا" ؟

تذكرت شيئاً مر بذهني كسرعة الضوء، فقلت:

ـ تقريباً .

ـ حسناً، إن أعراضها ظاهرة عليك..

نظر إلى منفضة سجائر الماريجوانا وأكمل:

ــ بل إن مسبباته باتت ركناً رئيسياً من أركان يومك.

وكأنني شعرت بالإهانة، فأشرت له بيدي كي يكمل دون أن يعلق على ما رأى، فقال:

ــ الشيزوفرينيا، هي اضطراب نفسي يتسم بتعدد الشخصية وفشل في تمييز الواقع، وتشمل الأعراض الشائعة لها وهي الوهم، اضطراب الفكر، الهلوسة السمعية، بالإضافة إلى انخفاض المشاركة الاجتماعية والتعبير العاطفي وانعدام الإرادة.

أخرج من جيبه هاتفه الخلوي وعرض علي بعض مقاطع الفيديو من "اليوتيوب"، بيد أنني لم أفهم كثيراً فرجوته أن يكمل متحدثاً.

ــ غالباً ما يكون لدى المصابين بمرض "انفصام الشخصية"، وهو نفسه ما يسمى "شيزوفرينيا"، مشاكل نفسية أخرى كالاضطراب الإكتئابي، واضطراب القلق وما شابه..

ــ وما علاقة ذلك بما يجري معي أنا؟

ــ باختصار، إنها نفسك القديمة تخبرك أنها تشتاق إليك، أو ربما تعاقبك على هجرك إياها، وذلك الصوت الذي

تسمعه ما هو إلا هلوسة وهوس.. ولكن الطريقة التي تذكرك نفسك بها هي خطيرة، وأخشى أن أقول أنها إذا تفاقمت ستكون خطيرة جداً... و

قطع رامي حديثه حينما شاهدني أبكي، كانت الأيام كلها ثقيلة على صدري، أصغر كلمة تشعرني برغبة عارمة على البكاء، كانت العزلة حلي الوحيد كي أحزن بها كيفما يحلو لي.

ـ طارق، شخصياً أعلم كم أحببت ليلك، ولكنها رحلت برغبتها، بقرارها، وما يتوجب عليك هو نسيانها، أو على الأقل المضي قدماً في حياتك. أدرك تماماً معنى الفراق، ولكنه أخذ حيزاً كبيراً من حياتك، أخشى عليك من الوحدة يا صديقي.. لو أن عائلتك هنا لكانت الحالة أفضل، ساعتها لن تجد للوحدة الطويلة وقتاً.

لم يكن هنالك أدنى شك في مصداقية كلامه، كان على حق.. أنتِ من رحلت برغبتك يا ليلك.. التخلي عنكِ صعب جداً، ولكنها الحياة وسأدعها تمضي..

تركني رامي سارحاً متأملاً.. لم يقطع تفكيري أبداً وهذا ماكنت أحبه به.. سألته:

ـ ضع نفسك مكاني، ماذا تفعل؟

بدون تردد أجاب:

ـ أتزوج.

ـ غير ذلك؟

ـ أنصحك إما أن تتزوج أو تسافر.

ـ إلى أين؟

ـ لعند أهلك مثلاً، إلى حماه.

ضحكت، ضحكت بشدة!

ـ رامي، ألا تعلم أن "تأجيلتي العسكرية" منتهية الصلاحية منذ عام ونصف.

ضحك معي وقال:

ـ إذاً هذا هو الحل.. تذهب وتخدم الوطن.

بحسرة قلت وكأني أكلم نفسي:

ـ يا ليتها كانت خدمة للوطن، يا ليتها كانت للوطن!

انتهى حديثنا إلى هنا.. إنها "الشيزوفرينيا" إذاً!

تذكرت الآن ذلك الشيء الذي مضى في ذهني مثل سرعة الضوء قبل قليل.. لقد شاهدت فيلماً مسبقاً يتحدث عن ذلك المرض، بيد أنني لم أفهمه بالضبط رغم أنني شاهدته ثلاث مرات.. أذكر اسم الفيلم: "Who am I?"

فهمت من قصته أن بطل الفيلم يعاني من ذاك المرض، ويكتشفون أنه يعيش بأكثر من شخصية.. فيلم رائع حقاً، سأشاهده للمرة الرابعة.

أمضى رامي بقية السهرة، حاول إقناعي في الخروج من حالتي تلك وأصر على زواجي، مضيتُ في صمتي، وتدخيني للماريجوانا بلا شراهة.

*

تكررت نوبات الانفصام تلك، وشيئاً فشيئاً بدأت الاعتياد عليه. ابتعدت عن سجائر الماريجوانا كي لا تأتيني نوبة جديدة، ولكن، يبدو أنني اعتدته بنفسي فقد أصبحت أستحضره بمحض إرادتي.

كل ما في الأمر أن طاقتي استنزفت يا الله، بريءٌ أنا، وأنت تعلم ما في الصدور..

إلهي، قد سارعت إلى أبواب رحمتك، أنقذني فإن الظلام يكاد يلتهمني فأنت الأقرب إلي من حبل الوريد.

ممتزج أنا بالوجع لدرجة أنني لا أقدر على التمييز بين نفسي وألمي، مؤمن بك أنا يا الله، ومدرك أن العبد القوي خير لك من الضعيف، فسامحني على إذعاني وقلة حيلتي أمام ألمي.

سامحني يا الله على ظلمي لنفسي، سبحانك إني كنت من الظالمين.

اللهم إني مسني الضعف وأنت القوي الجبار، اللهم يا من سخر كل شيء أمام عظمته، أبدل حزني فرحاً وامنحني القوة على النسيان يا كريم؛ ألست من قال بأنك تجيب المضطر إذا دعاه وتكشف السوء يا رب!

ـ {أَمَنْ يُجِيبُ المضْطَّرَ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ}.. نعم، الله سبحانه وتعالى من قال ذلك.

هذا ما كان ينقص، لقد عاد مجدداً.

أجبته:

ـ اصمت أنت، دعني أناجي ربي.

ـ ومن قال لك أني لا أحبذ ذلك؟ على الأقل أنت تتضرع لمن يسمعك ويجيبك، لا لمن يذلك.

لقد كان يعرف كيف يستفزني بطريقة ممتازة!

ـ الأمر لا يعنيك، دعني وشأني وانصرف حالاً.

قهقه، وقال:

ـ ولكنني أنت، ورحيلي يعني رحيلك أيضاً.

لقد أثار غضبي حقاً. قلت له بغضب:

ـ أنت كاذب، أنت لست أنا، لا وجود لك أصلاً، أنت مجرد صوت لعين في رأسي، أنت مجرد هلوسات لا أكثر.

لأول مرة أراه ينظر لي بهذه الكمية من العطف. تناول "إبريق الشاي" من فوق الطاولة، وسكب لنفسه كأساً، وراح يرتشف منه ببرود. أخيراً قال:

ـ حسناً يا طارق، سأخبرك فقط أنه لا منجي لك سوى الله، فلا تتوقف عن الدعاء.

شعرت ولأول مرة من نبرة صوته أنه يقول الحقيقة، قلت:

ـ تعتقد أن الله سينجيني أم أنه سيختبر صبري أكثر؟

ـ تباً لك! ومن قال أنك صبرت أصلاً؟ كل ما فعلته هو البكاء كالأرامل. كل ما كنت تفعله هو إذلال نفسك.

ـ أنا لست كذلك، أنا فقط...

ـ أنت ذليل لدرجة أنك تبرر سبب إذعانك.

ـ ولكنني أ....

ـ أرأيت كم أنت ذليل!

ـ ولكن...

ـ اسكت، لا تقل ولكن.. قل أنا هكذا وسأصحو وسأفيق.

ـ ولكنني لا أ...

قذف بكأس الشاي نحوي، فانفجرت فوق رأسي على الحائط وتناثرت شظاياها حولي! لقد أغضبته.

ـ أخبرتك ألا تقل ولكن.. اعترف لنفسك بهزيمتك كي تبدأ بوضع خطة الانتصار من جديد.. لا تكن ضعيفاً يا مغفل.

لقد طفح بي الكيل، فانفجرت معترفاً:

ـ حسناً ذليلٌ أنا.. أنا ذليل، ولكن كل ما في الأمر أنني اعتبرتها ملكة وسلمتها عرش قلبي يا انفصام.

ـ إرهابية هي، فالملوك لا يجلبون الحروب لممالكهم.

ـ اصمت، لا أريد تصديق ذلك أرجوك.

ـ ذليل أنت! شُلَّ قلبك يا مغفل، شُلَّ قلبك.

ـ حسناً، ألستَ أنا؟

ـ نعم.

ـ لماذا تؤلمني إذن؟

أخذ يشد بشعره ويضرب برأسه عرض الحائط، ثم قال:

ـ أنا فقط أُسمعك أشياءً أنت لا تجرؤ على البوح بها حتى لنفسك.

ـ طيب.. تريد بذلك مساعدتي أم تريد إيلامي؟

هـذه المـرة ثـارت ثائرتـه.. تقـدم مـني وأمسـك بياقـة القمـيص الذي أرتديه. ضغط على عنقي بقوة وقال:

ــ حقـاً أنـت لا تفهـم.. بـدأت أفقـد سـيطرتي علـى نفسـي.. أخبرتـك ألـف مـرة أنـني أريـدك أن تصـحو مـن كبوتـك يـا مغفـل، فقـد تحملـتُ طـوال تلـك الأيـام وأنـا صـامت لا أتكلـم، أما الآن فسوف أبدأ تمردي عليك.

ــ نفس السؤال.. ما هو الحل؟

أفلتني من كماشته.. جلس على الكرسي أمامي وقال:

ــ لقـد بـدأت بعمـل قبـل قليـل ولم تنتـه منـه بعـد.. أكملـه وسترى بعد ذلك.

ــ وبماذا بدأت؟

ــ ألم تكن تناجي الله؟

ــ بلى.

ــ إذن توضـأ وصـلِّ ركعتـين، فـذاك الـدواء الوحيـد الـذي سيشـفيك.. خمـس مـرات في اليـوم، والجرعـات الزائـدة منـه لـن تؤذيك أبداً، على العكس تماماً، ستشفيك أسرع.

قالها وانصـرف.. نهضـت مـن مجلسـي وتوضـأت. حينمـا وقفـت كـي أصـلي بكيـت بكـاءً شـديداً عكـس الـذي اعتـدت أن

أبكيه من قبل، هذه المرة أبكي من خشية الله فقد مر وقت طويل على وقوفي بين يديه.

بدأت صلاتي.. حاولت بكل ما استطعت كي لا أدعي في سجودي: "اللهم اجمعني بها"..

كانت صعبة جداً ألا أقولها، ولكن كلام الله كان عزاءً لي فقد بدأت أرتل:

{وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ}

وضعت راحتي بين يدي الله وسلمته قلبي، فالحمد لله على ما سيختاره لي.

أنهيت صلاتي بالتسليمة الثانية، فوجدت انفصامي ينتظرني على الأريكة، هناك على طرف اليسار، فنظر لي بوجه مبتسم، لأول مرة يبتسم هكذا برضى.. نعم، إنها المرآة!

* * *

(٩)

حينما يكون الألم هو أفضل ما

نعرفه،

يكون التخلي عنه محنة.

ميشيلا مارزانو

جاء والدي أخيراً. لقد افتقدته جداً، فآخر مرة رأيته بها كانت منذ حوالي ستة شهور. كان يزداد جمالاً كلما خضَّب الشيب رأسه.

"أبي، لو كنت أملك أن أهديك قلبي لنزعته من صدري وقدمته إليك، ولو كنت أملك أن أهديك عمري لسجلت أيامي باسمك، ولكنني لا أملك سوى كلمات وحروف كثيرة من صادق التعبيرات، فلتكن تلك هديتي إليك".

تعانقنا أنا وهو لحظة دخوله إلى المنزل، كان يحمل رائحة والدتي بين طيات ملابسه. لقد افتقدتها جداً وأشتاق لرائحة الجنة من تحت قدميها.

"أمي هي تعزيتي في حزني، رجائي في يأسي، وقوتي في ضعفي. فيا رب، أطل بعمرها واجعل يومي قبل يومها حتى لا أموت مرتين".

أمضينا النهار برمته نتحدث عن التغييرات التي حصلت وجرت في فترة غيابهم. كان حزيناً جداً على حالتي هذه. سألني عنكِ يا ليلك، سألني إذا ما استجد جديد، ولكنني آثرت الصمت على الكلام.

إن أصدق الكلمات هي تلك التي نبوح بها في صمتنا.

على الفور أدرك أوجاعي وأحزاني، وضع يده على كتفي وقال:

ـ ستعبر كل تلك المراحل، عليك أن لا تستسلم فقط.

عندما حل المساء بدأ والدي الحديث عن الموضوع الذي جاء من أجله، كما توقعت، الزواج.

كانت رغبته كبيرة في أن ينتشلني من تلك النار التي تلتهمني، تلك النار التي لا برد ولا سلام فيها.

كان حديثه منطقياً جداً وكانت كلماته منتقاة بعناية حيث يجعلها تلامس عقلي وقلبي معاً، لطالما كانت أحاديثه تروي فؤادي وكلماته تضمد جراحي.

لم أنطق شيئاً، اكتفيت بالاستماع فقط. وعندما انتهى من حديثه سألني:

ـ ما هو رأيك؟

لم أكن أملك جواباً حينها، ولكنني نطقت:

ـ دعني أستخير الله أولاً، وبعد ذلك لكل حادث حديث.

همهم قائلاً:

ـ نعم عملاً استخارة الله، عساه خيراً.

ـ عساه خيراً.

*

فاجعتي يا ليلك هي أنني حاربت بكل ما أوتيت من ضعف وقوة، حاربت بكل ما استطعت من حب ومشاعر، حاربتُ بكل ما أوتيت من طاقة، ولهذا السبب كانت الخسارة كبيرة.

أصبحت لا أقدر على المواصلة على نفس الوتيرة، وضعت فاصلة وبدأت السير من جديد، ولكن من دون أن تكون لحياتي معنى بعد تلك الفاصلة، فبعدها رُفعت الأقلام وجفت الصحف. دفعتُ بأوراقي كلها يا ليلك، خسرت جيوشي.

أصبحت بلا جيش أحارب به، وبلا وطن أنتمي إليه، واستسلمت لكل ما يريد أن يختلجني من شعور..

لم يعد في عيني الماء ماءً ولا العيش عيشاً، سأتزوج قريباً وسأصبح مثلهم خاضعاً لقوانين العشيرة.

أخشى أن لا أجد استقراري في ذلك الزواج كما يقولون.

أخشى أن تصبح أحلامي كوابيساً تخنقني في نومي وفي يقظتي. أخشى أن يصبح الشرف ضعفاً، والإشراق غياباً. أخشى تصبح الحياة متاهات لا بداية ولا نهاية لها.. أخشى أن تنعدم المشاعر إلى الأبد، ويصير الحب جنساً.

فـاجعتي يـا ليلـك هـي أن أنطـق اسمـك عـن طريـق الخطـأ، في لحظـة شـرود، أمـام امـرأة لا يحمـل اسمهـا أي حـرف مـن حـروف اسمك..

فـاجعتي يـا ليلـك هـي أن لا أمـنح أولادي حـق الأبـوة لأنـكِ لم تشاركيني أنتِ في إنجابهم.

فـاجعتي يـا ليلـك *أن أصـحو علـى نفسـي في عيـد زواجـي العشرين بجانب امرأة لم أعرفها تسألني بعفوية: "أتحبني!؟"*

تلك هي الفاجعة يا ليلك، وليست فقدكِ.

الألم هـو أنـني أقضـي ليـالي ديسـمبر البـاردة لوحـدي، ولا يـدكِ تقـترب فتمسسـني فتبعـث الـدفء في روحـي، ولكـن مـاذا عساي أن أفعل؟

تلك هي الحال، والحال أحال الحال لأسوأ حال!

إنها ليست جناسات أدبية فقط، ولا هي مفردات كتبتها كي أبرهن ذكائي وقدرتي على صف الكلمات.. الحقيقة تكمن في جمال لغتنا التي أصبحت مثلك تماماً، أكره انتمائي لعروبتها.

تباً، لطالما كرهت الاستطراد، ولكنني في كل مرة أجد نفسي أخطو في سراديبه.

على أية حال أعود للبداية، للحال الذي يعيش بي، وليس الحال الذي أعيشه.

تعلمين يا ليلك، السبب ليس هو، بغض النظر عن وحشيته وسطوته القاسية علينا -عن ديسمبر أتكلم- إلا أنني أحبه على الرغم من أنه قاسٍ لدرجة امتلاكه القدرة على أن يسقط قلوبنا مع أوراق الشجر؛ ينفث الحنين فيها مع رياحه لتتجمد، ومن ثم يسقطها بكل ما أوتي من حنين وذكريات.

في كل عام ألقي اللوم على ديسمبر، ديسمبر الذي سلبك مني، لكنني اكتشفت أنني أصبحت أشبهه في كل شيء، وربما هذا سبب حبي له، لن أستطرد أكثر..

الحال هو أنني أقف أمام المرآة مندهشاً، ليس من هول المظهر لأنني اعتدت عليه، ولكنني حقاً لا أملك القدرة على التركيز، على العيش بمقام يناسب بني الإنس، على الحب، على الشعور، على الدراسة، على كل شيء وحتى على الكتابة..

فقدت مقدرتي على الكتابة، وأنا الذي لطالما أحبها وعشقها، أنا الذي ما كان يبكي إلا بلغة الحروف.

أجد نفسي مستلقياً على سريري كامرأة وضعت مولودها الأول لا قدرة لها على الحراك، على يميني نافذة غرفتي التي

تطل على غرفة فتاة تحاول دائماً لفت انتباهي أثناء اغتصابي للسيجارة الأخيرة قبل النوم.. المشكلة ليست في الفتاة فقط، المشكلة في طرق الإغراء.. الغبية تعتقد أن هذا سيلفت انتباهي.

أيعقل أنني فقدت حتى تلك الغريزة؟ أيعقل أنني فقدت حتى تلك اللذة!؟

أغضب، وبلا شعور، أخبط نافذتي بكل ما امتلكت من غيظ وأعود كي أستلقي على الفراش..

* * *

(١٠)

يُقدم الناس على الزواج لأنهم لا
يستطيعون مقاومة رغبات الطبيعة
توماس هاردي

تعرفت عليها في الجامعة، تصغرني بعامٍ فقط. هي من أجمل النساء في الكلية إن لم تكن الأجمل، متوسطة الطول، طيبة القلب، ومرهفة الأحاسيس. تشعر وكأنها ابنة الشمس من شدة الصهبة في شعرها، بشرتها تنافس الثلج على اعتلاء عرش البياض.

بحور الكون تجتمع في زرقة عينيها لتجعل الناظر لها يغرق من أول نظرة.

معرفتي بفتون بدأت مذ أن كنا مستجدين في الجامعة، فعندما رأيتها لأول مرة تيقظت جوارحي وشرعت أحيك خططاً كي أنقض عليها قبل أن تغدو فريسة لغيري.

لم يكن الحب ملهمي حينها، ولكنها غريزة الرجال التي لا تخمد أبداً. ولكن العجيب أنها لم ترفض دعوتي لها في أول مرة من أجل احتساء فنجان قهوة بعد أسبوع فقط من النظرات المستمرة إليها، أو حتى أكون دقيقاً، من النظرات المستمرة بيننا.

بادلتني فتون تلك النظرات حتى أحسست للوهلة الأولى أنها سهلة العبور، بيد أن جميع الرجال الذين فشلت فخاخهم بإيقاعها في شباك الحب، وعقلها الذي عرفته فيما بعد، مكناني من معرفة جانبها الحقيقي.

هكذا يفكر مجتمعنا.. كُلهن عاهرات إلى أن يثبتنا العكس!

وعلى الرغم من ثقافتي وتحرري من قيود المجتمع تلك، إلا أنني أجد نفسي أحياناً أفكر بتلك الطرق المريضة دون أن أشعر!

فتون امرأة ذات ذكاء حاد، فأحاديثنا لم تجرِ كما خططت لها أنا، تفاجأت أنني أصبحت أنساق لها ولرغبتها دون أن أشعر.. دون أي مقاومة مني!

كانت تشدني بأحاديثها دائماً حتى أصبحت مشدوهاً ومعجباً جداً بها وبتفكيرها، أكثر من إعجابي بمفاتن جسدها.

لا تشبه نساء مدينتنا أبداً، على الرغم من أن عائلتها من أعرق العائلات. سألتها مرة:

ـ أمك روسية؟

ضحكت:

ـ إي، من موسكو.

ضحكت بدوري أيضاً وأكملت:

ـ أنا لا أمزح، أجيبي.

ـ وماذا خطر لك لتسأل هكذا سؤال؟

تنحنحت، وبدأت أتكلم:

ـ مبادئك الغربية، تفكير الذي لا يمت للشرقين بأية صلة. وحتى مظهرك، لم أرَ يوماً شقاراً مثل هذا الشقار، أو كتلك العيون الزرقاء.

أحنت رأسها بخجل حاولت ألا تجعله ظاهراً عليها.

ـ ليست أمي روسية ولا حتى أوروبية. نطقت فتون بابتسامة خفيفة وتابعت: نحن سوريون أباً عن جد.

*

تغريني جداً لكي أطيل النظر إليها، والعجيب كما أخبرتك يا ليلك أن ذلك الإغراء لم يكن حباً، ولم يكن شهوة! ربما بسبب اختلافها عن الأخريات كنت أنساق لها.

بعد تعارفنا بشهر، سافرت فتون إلى "الإمارات" مع عائلتها لزيارة شقيقتها التي وضعت مولودها الأول. كان من المفترض أن تعود بعد ثلاثة أشهر فقط، ولكن غيابها طال أكثر.

كانت تراسلني كل يوم، وتبعث لي عشرات الرسائل والصور على "الواتساب". كانت تضعني في تفاصيل يومها، ماذا أكلت وأين خرجت ومع من و.. و..

لم أكن أحبذ أن أبادلها النقاش طويلاً، فأنا رجل يكره بشدة تلك المحادثات الالكترونية السخيفة ولا أجد صبراً لكي أستمر أكثر من خمسة عشرة دقيقة في مراسلة أحد ما.

ولكن ذلك القانون لم يطبق عليك، كنت متململاً مع الجميع إلا معك أنتِ يا استثنائي..

وهكذا، قلت المحادثات بيننا إلى أن انقضت فترة غيابها وعادت إلى "سوريا".

لم يكن شيئاً قد تغير في هذه الفترة سوى معرفتي بعازفة الموسيقا، بتلك الفتاة ذات العيون السوداء، تلك الفتاة التي سرقت قلبي منذ أول نظرة، الفتاة التي لم أكن أعرف اسمها حينها، والتي أسميتها "يوتوبيا".

*

تفاجأت فتون من برودي الظاهر، حاولت بطرق غير مباشرة أن تفهم لماذا تغيرت، ولكنها تأخرت فقد فقدت اللهفة على لقائها. ولكنها ألحت حتى وافقت بحرج شديد عندما دعتني لاحتساء فنجان قهوة في "كافتيريا الكلية"، وهناك اعترفت لي بحبها.

أتأملها وهي تعبث بالفنجان والصمت يخيم بيننا، تنظر لي تارة ثم تعيد النظر إلى فنجانها تارة أخرى. طال صمتها كثيراً وكأنها تحاول أن تفهم ما الذي جعل صداقتنا تبرد هكذا.

استطاعت أن تلجم فاه الصمت بيننا وقالت:

ـ ما الذي يحدث يا طارق؟

أجبتها بعد ثوان:

ـ لا شيء يا فتون.. لا شيء.

أجبت وكأنني لم أفهم ماهية سؤالها أبداً، فقالت:

ـ لكنك لست أنت، لم تعد كما عهدتك، أراك وكأنني أراك للمرة الأولى.

بماذا أجيب؟ وجدتها، حجتي المعهودة:

ـ القليل من الاكتئاب يا فتون لا أكثر.

عادت إلى صمتها من جديد بعد أن اختارت الصمت أمام جوابي الأخير. كانت حقاً تخوض صراعاً داخلياً في باطنها، وفتون من اللواتي ينصرن العقل لا القلب.

نظرت لي بحزن لأول مرة أراه في عينيها:

ـ فهمت يا طارق.. فهمت.

ـ وماذا فهمتِ؟

اعتدلت في جلستها وقالت:

ـ عندما بدأت صداقتنا كنت أشعر بالراحة في الحديث معك جداً. لا أكذب عليك، كنت أُجذب إليك بشكل كبير ولكنني واعية للحد الذي يجعل مني قادرة على التمييز بين الحب والإعجاب.

ارتشفت من فنجان قهوتها بمرارة، ثم أردفت:

ـ عندما ذهبت إلى "الإمارات"، وبعد مضي شهر هناك، أدركت أنني على استعداد لمجاراة جنوني وأن أعترف لك بهذا الحب. لا أدري لماذا أصبحت لا أنام إلا وصورتك بين

أحضاني، لا أعلم لماذا كنت أول زائر يأتي لمخيلتي صباح كل يوم.

كانت جميلة جداً وهي تبوح عما في قلبها.. أردت أن أرد عليها ولكنها قاطعتني بإشارة من يدها. كانت فتون جميلة جداً بعينيها، بشعرها، بشكلها.. كانت جميلة للحد الذي يجعل منها رغبة لكل رجل، ولكن قلبي كان قد أصيب بكِ يا ليلك حينها.. ربما استجابت جوارحي لفتون، ولكن قلبي أبى.

تركتها تكمل:

ــ وبعد ذلك يا طارق، قررت أن أصارحك، أن أخبرك أنني أفتقدك جداً، ولكن برودك معي وتجاهلك لي أرغماني على الصمت.

ــ ولكنني مكتئب يا فتون. قد تكون..

قاطعتني:

ــ لا أطلب منك أية تبريرات يا طارق. أردت فقط أن أخبرك بهذا. هنالك الكثير ولكنني لست أتمكن من البوح عنه. أريد أن أخبرك شيئاً أخيراً.

وكأنني توقعت:

ــ ما هو؟

نزلت دمعة رغماً عنها، وحيما لامست سطح الطاولة التي تفصل بيننا قالت:

_ أحبك جداً.

قالتها وانصرفت دون أن ننتظر أي رد.

لقد كانت ذكية، مكابرة، غريبة جداً بطبعها يا ليلك.. فبمجرد النظر إلي عيني وهي تتحدث فهمت جوابي، وهذا ما زاد إعجابي بها أكثر لأنها مختلفة، ولكنني كنت أريدك أنتِ، كنت أفكر بنصفي الآخر، بمدينتي الضائعة، بمدينتي الفاضلة التي ستحتويني.

لم أخبرها بوجودك في قلبي يا ليلك، حتى أنها لم تسأل، فما يهمها لم يكن معرفة التفاصيل كباقي الفتيات، بل النتيجة.

نتلاقى أنا وفتون في أفكارنا ونتوافق بها بشدة، فلطالما كنت مثلها أكره التفاصيل وأكره أن أسردها لأحد وأكره حتى سماعها من أحد..

سأخبرك بشيء لا أعتقد أنكِ تعلمينه: أنا حقاً أكره التفاصيل وأمقتها بشدة.. ولكنني أقولها لك للمرة الألف يا ليلك: لطالما كنتِ استثناءً لقواعدي.

لم أشعر بالملل قط حينما سردت لي قصة انفصال صديقتك، التي لا أعرفها، عن حبيبها، الذي لا أعرف أيضاً من يكون!

لم أشعر مرة بضجر حينما تبعثين لي مئات الرسائل لتخبريني ماذا تفعلين الآن وماذا أفعل أنا.. العجيب أنني كنت أسرد لك تفاصيلاً لو جلست بمفردي وحاولت انتباهها لما استطعت!

لم أحبكِ كما أريد أنا يا ليلك.. لطالما أحببتكِ كما أنتِ.

*

عندما أعاد والدي سؤاله بالنسبة لموضوع الزواج أجبته بالموافقة. فرح كثيراً وأخبرني بوجود العديد من الفتيات اللواتي يعرف عائلاتهن وسيذهب لرؤية صديقه الذي هو أب لفتاة صاحبة أخلاق عالية وعلى قدر من الجمال من أجل مفاتحته بموضوع الزواج و... ولكنني عارضته فوراً، وأخبرته عن "فتون" بلا تردد.

لم أقص عليه كامل التفاصيل، اكتفيت فقط بإخباره عن فتاة جميلة كانت صديقتي في الكلية.. لم يمانع، على العكس تماماً، فقد كان ما يهمه هو أن يراني سعيداً، ولكنه لم يعلم يا ليلك أن خيوط السعادة قد قُطعت حين افترقنا.

لم تنقطع علاقتي بفتون بشكل كامل على أية حال، ولكن لقاءاتنا باتت قليلة جداً، بل وأصبحت شبه نادرة الحدوث.

*

عندما حل المساء، كان رامي يضع آخر لمساته علي إذ أنه أشرف على مظهري وتسريحة شعري ونوع الساعة التي سألبس.. حاولت أن أطرد من رأسي ما يتلف قلبي من آلام.. لطالما تمنيتك واشتهيتكِ أنت يا ليلك..

علاوة على ذلك، لم يكن توءم روحي كرم بجانبي في ذلك اليوم، حتى أذناي انتظرت سماع "زلاغيط" والدتي وشقيقاتي ورؤية الفرح والسرور على وجوههن في مثل هكذا يوم؛ ولكن لم يكن شيئاً واحداً من هذا.. كان أشبه بيوم حداد.

فهم رامي من شرود ذهني ما يجول بداخله، أخبرني أن أبقى متماسكاً وأن أقنع نفسي بعودة السعادة إليها ذات يوم بعد خطبتي وزواجي، لكنه ربما لا يعلم أنني فقدت روحي فبقيت جسداً بلا روح، والمؤسف أنه ما من قلب في داخلي سينبض احتفالاً برؤية فتون، ولكنها الحياة يا ليلك، وستستمر.

بعد انتهائنا بلحظات قليلة، رن هاتفي، كان أبي.. كان ينتظرنا في الأسفل، فوالد الفتاة في انتظارنا، وموعدنا بعد نصف ساعة من الآن.

* * *

(١١)

لم تكن قوتي بحاجة إلى رعاية فقط..

بل مخيلتي كانت تحتاج إلى ذلك أيضاً..

جوزيف كونراد

كل اعتراف في نسيان الحب الأول ما هو إلا ادعاء كاذب، ففي الحب الأول شعور لا يوصف بالكلام ولا يختصر بالمعاني والحروف.

عندما يسلك المرء طريقه ويشرع بالدخول من بوابته الأولى ستصادفه حياة جديدة مختلفة جداً عن حياته السابقة.. طريق أوله لذة لا توصف، فيه ستتحرك المشاعر لأول مرة، وسيبدأ القلب بعزف ألحان جديدة.. فيه ستبدأ كلمات الحب والعشق بالولادة البكر، للمرة الأولى، من رحم ألسنتنا ومن فيض أحاسيسنا، وسنتحول تلقائياً إلى كتلة رومانسية لا قدرة لمياه العقل على إخماد نيرانها.

سيستوطن ذلك الحب جزءاً عميقاً داخلك، داخل قلبك، ثم أنك لن تستطيع مهما حاولت من انتزاعه من بين حطامك، ومع مخاضه، ستخرج أوجاعك كما لم تعتد عليها من قبل.

سيؤلمك هذا الحب كثيراً مهما عبرتك الفصول وأدركتك السنين؛ سيجعل من قلبك عليلاً مهما سكنته نساء

أُخريات ومهما ازدادت بشرتك تجعيداً وامتلأت شعرات رأسك شيباً.

سيعيدك ذاك الحب طفلاً يبكيك ألماً وأنت بين أحضان امرأة أخرى قالوا لك أنها زوجتك..

سيصفعك الألم حنيناً على رأسك، حنيناً لتلك اليد التي شابكت أناملك لأول مرة، حنيناً لتلك العيون التي سحرتك من أول نظرة، لتلك الروح التي انصهرت بروحك وحملتك بعيداً إلى عالم لا وجع فيه.

ستعيدك ألحان الذكرى فيما بعد لتخبرك أن العشق كان كصوت جرس كنيسة قدسية، وأذان مسجد طاهر؛ ثم صار رماداً منثوراً هنا وهناك بين بقايا أطلالك.

ستعود الذكرى لتخبرك أن الحب كان شهوة الروح، ثم صار بعدها شيئاً حقيراً كشهوة الجسد.

سيبقى الحب الأول ندبة موشومة على قلبك لن تزول مهما كثر عدد الأيادي التي ستمسح وتطبطب عليها.

*

في مساء ذلك اليوم المشؤوم:

استيقظت صباحاً مبكراً على غير العادة. جسدي منهك من سهرتي البارحة التي قضيتها وأنا أكتب لحدود الرابعة فجراً.

أول ما فعلته هو رؤية الإشعارات الحديثة على تطبيق "الفيس بوك".

لديك طلب مراسلة جديد على messenger

فتحت التطبيق المذكور. رسالة مكتوبة باللغة الإنجليزية. وقبل أن أقرأ، نقرت على الأيقونة التي تعرض "حساب" المرسل. كان إنجليزياً أيضاً!

علامات الاستفهام تحوم حول رأسي. ترى من يكون!؟

كان اسمه واضحاً كضوء الشمس:

"Harry Johansson"
London/England

تصفحت حسابه سريعاً، كان واضحاً أنه لشخصية حقيقة وليس حساباً مزيفاً، ولكن ماذا يريد مني رجل إنجليزي من لندن!

قفزت بسرعة إلى الرسالة، كانت مرسلة قبل ساعة و خمسين دقيقة من الآن، بدأت أقرأ:

" عزيزي طارق، أتمنى لك يوماً سعيداً..
لا أدري من أين سأبدأ، أووه.. دعني أبدأ بأسفي..
آسف لأنني سأتحدث قبل الوقت الذي حددته "ليلك"..

شُلت أطرافي وارتعشت أصابعي حينما قرأت اسمكِ.. ليلك!! تابعت القراءة بخوف وذعر شديدين:

... ولكنني لم أعد قادراً على رؤية تلك الزهرة تودع أوراقها يوماً بعد آخر، لم أتمكن من أن أحافظ على عهدي الذي قطعته لها أمام الرب تالياً صلواتي، ولكن الرب لا يرضى بذلك أنا أعلم..
أخشى عليها أن تذبل أكثر، أخشى أن تسقط آخرة ورقة منها قبل أن تراك، فليس ثمة برد غير صدرك يطفئ لهيب صدرها يا أخي..
بالمناسبة، أكون زوجها.. زوج ليلك..
إن أردت تفاصيلاً أكثر، تواصل معي على رقمي هذا(*****)

حظاً طيباً
هاري

قرأت تلك الرسالة مرة واثنتين وعشرة، ولكنني لم أصحو من دهشتي أبداً، لم أفهم شيئاً البتة!

كان ذلك أول خبر أسمعه عنك منذ سنتين يا ليلك، والغريب أن الذي زف الخبر لي هو رجل إنجليزي، ولكنه ماذا يقول، زوجك!؟

سارعت بإضافة رقمه إلى جهات الاتصال على هاتفي المحمول، ضغطت على زر الاتصال.

رنين..

فُتح الخط أخيراً. تحدثت بالإنجليزية:

ـ مرحباً، أنا طارق الذي أرسلت له الرسالة ورقمك كان مدون أسفلها، من أنت؟

ـ .....

ـ سعيد بمحادثتك أيضاً، تفضل هاري ماذا تريد مني؟

ـ .....

ـ نعم، أسمعك بانتباه، قل ما تريد قوله.

ـ .....

اللعنة، ما الذي يقوله هذا! أجبته بانفعال:

ـ ما الذي تقوله أنت؟

ـ .....

ـ وما الذي سيثبت لي صدق كلامك؟

ـ .....

ـ ماذا !؟

ـ .....

ـ لا داعي لكرت الزيارة، سأحضر بأسرع وقت ممكن.

*

أنهيت المكالمة وقلبي يخفق من شدة الخوف والفزع، ماذا لو كان ما يقوله حقيقياً!

تسمرت للحظات في مكاني، عقلي عاجز عن التفكير بشكل سليم. أعادني صوت هاتفي مجدداً إلى رشدي، وبأصابع مرتعشة أمسكته.

رسالة وسائط جديدة من Harry

وقبل أن أفتح الصورة المرفقة بها، وصلتني رسالة نصية منه أيضاً:

"أكرر أسفي من جديد، آسف لأنني أرسلت لك الصورة، ولكنني أردتك أن تقطع الشك باليقين.
أقولها لك مرة أخرى.. أنا مستعد لأية مساعدة مادية إن احتجت، ولكن حضورك ضروري جداً يا أخي.."

انتهيت من قراءتها بسرعة البرق وذهبت لأضطلع على رسالة الوسائط..

جاري تحميل الصورة..

يا ليتني ما رأيتها!

كانت صورة لكِ يا ليلك.. متمددة على سرير في مشفى ما.. مغمضة العينين وجهاز الإنعاش يغطي أنفك وثغرك بهدوء.

أحسست بالدنيا تدور من حولي حينما شاهدتك بتلك الحال يا ليلك، ولولا إحساسي بذلك الشيء الذي يحثني على العجلة في سفري، لسقطت أرضاً مغشياً عليَّ.

*

بعد ساعتين فقط من رسالة هاري، كنت أعبر البوابة الرئيسية لمطار "حلب الدولي"، حجزت مقعداً في أول طائرة ستقلع إلى مدينة "اسطنبول" بعد نصف ساعة.

أحسست بالوقت يسير كالسلحفاة، جسدي يرتعش من الخوف كلما عادت لذهني كلمات هاري. أحاول إشغال نفسي بالتفكير في أي شيء كي أطرد الأفكار السوداء التي كانت تتقافز أمام ذهني.. كانت نصف الساعة تلك

كنصف قرن يمضي على قرية تحارب بوهن وقد أنهكها الحصار.

أخيراً سمعت صوت المكبرات تحث المسافرين إلى "اسطنبول" بالصعود إلى متن الطائرة.

جلست في مقعدي ووضعت السماعة في أذني، كنت أستمع إلى سورة من القرآن الكريم، وأدعو الله في سري أن لا يصيبك أي مكروه يا ليلك.

هكذا نحن البشر، معظمنا لا يلجأ إلى الله إلا إذا ما حلت به مصيبة وشعر بالحاجة لأن يتملص منها، نعصيه فيسترنا، نرجوه فيستجيب لنا، وعندما يمن علينا بما أردنا، نواصل اللهو في لعبة الحياة.

كل مصيبة مستني كان الله هو ملجئي الوحيد لأنني أؤمن بأنه فقط من بيده حلول الأرض والسماء، وبنية صادقة أدعوه أن يفرج كربتي.. ولكنني سرعان ما كنت أنسى وأغرق في بحر المعاصي من جديد، فيمسني حزن فأعود إليه مكسوراً بنية جديدة صادقة وأذكر جميع وعودي السابقة التي لم أستطع الوفاء بها. أدعوه بقلب صافٍ وأختم دعائي "بيارب، إنها المرة الأخيرة أعدك، فسامحني"!

كنت أعلم أن الله يمهل ولا يهمل ورغم ذلك لم أثبت يوماً وأصدق في وعودي.

أقولها الآن من جديد يا الله بنية صادقة وقلب خاشع متضرع، فأنت وحدك من يعلم ما في الصدور وتعلم ما تخفي قلوبنا من نوايا.

اللهم لا تفجعني بفقدها، ولا ترِني بها بأساً.. اللهم تقبل دعائي واشهد على أنها آخر مرة لأنني لن أضل عن طريقك من جديد.

اللهم إني أسألك اللطف في قضائك وقدرك يا رب العالمين.

دعوت الله حتى فاضت عيناي يا ليلك، ولم أكف عن الدعاء إلا عندما حطت بنا الطائرة في "مطار أتاتورك" لتعلن عن وصولنا إلى "اسطنبول".

قضيت في تركيا مرغماً ليلة واحدة في أحد الفنادق لأن الرحلات الجوية كانت قد توقفت لحظة وصولي بسبب سوء المناخ؛ ليلة لم أذق فيها للنوم طعم، فعندما اختليت بمفردي استرجعت بذاكرتي ما أخبرني به هاري على الهاتف والذي أتى بي إلى هنا.

لماذا لم تخبريني أنت يا ليلك!؟

كان ذلك سبب رحيلك إذن.. كان ذلك سبب بكاؤك المتواصل!؟

لماذا فضلت البكاء في كل مرة وصلنا بها لقمة الحب والجنون على إخباري بحقيقة مرضكِ هذا؟

ما أخبرني إياه هاري هو أنه قبل حوالي سنة ونصف من الآن تعرض صديقه لحادث سير وتم نقله إلى المستشفى، وشاء الله أن تكون ذات المستشفى التي كنتِ تتعالجين فيها.

شاء القدر أن يراك ذلك الغريب تبكين وحيدة على السرير، استوقفه ذلك الجمال ليسألك عن السبب.

أخبرتكِ إدارة المستشفى أنها بعد شهر فقط ستعتذر عن استقبالك لعدم امتلاكك الجنسية البريطانية، أو أوراق إقامة على الأقل.

سردتِ قصتك له، فرقَّ قلبه عليك بعد عدة زيارات لكِ وعرض عليك الزواج، على ورق فقط، لمنحك الإقامة وإكمال فترة علاجك في البلاد.

وافق والدكِ من دون تفكير على ذلك العرض، فقد كان يمثل القشة الوحيدة التي ستنجيك من الغرق.

أخبرني أنكِ كنتِ تروين له قصص حبنا وتبكين بحرقة، أخبرتِه عن حبك الكبير لي، وعن أسفك لأن القدر لم يشأ أن يجمعنا تحت سقفٍ واحدٍ.

لطالما تعاطف معكِ وحاول أن يقنعك في بوح الحقيقة لي، ولكنك أصررتِ على التكتم حتى أجد سعادتي مع امرأة أخرى، امرأة صالحة للحياة.. ليتكِ ما فعلتِ.

أوصيتِ هاري أن يخبرني بالحقيقة بعد موتك عندما بدأ المرض بالفتك بكِ أكثر وأكثر قبل شهر واحد.. لا أصدق يا ليلك، ألهذه الدرجة فقدتِ الأمل!؟ ولكن عندما ساء الحال جداً إلى أن وصل الأمر لدخولك غرفة الإنعاش قبل أربعة أيام بسبب غيبوبة مفاجأة، أخبرني هاري فوراً.

*

كان من المفترض أن أصل إليك باكراً، ولكن أربعاً وعشرين ساعة قضيتها مجبراً في "اسطنبول" كانت كافية لوشم ندبة الألم على قلبي.

أربع وعشرون ساعة فقط كانت الحد الفاصل بين فاجعتي وهنائي يا ليلك.

لو أن هاري أخبرني قبل يوم واحد فقط، لو أن المناخ تأخر في غضبه يوم واحد فقط.

أربع وعشرون ساعة لو أن الله رزقني إياها لبكيت أوجاعي على كتفكِ، لارتميت على صدركِ وذرفت من العبرات ما أثقلني طيلة عامين يا ليلك.

قدر الله أن يذيقني فاجعتي بهذا الشكل، فالحمد لله على كل حال.

*

عند وصولي إلى مطار "هيثرو" في "لندن" بعد ثلاثة أيام من مغادرتي البلاد، كان هاري بقامته الممشوقة ينتظرني في قاعة استقبال الوافدين. ركبنا السيارة واتجهنا إلى المستشفى.

سألته عنكِ فأجابني أن أصلي من أجلك/أن أدعو الله فقط..

كلي رجاء في أن أراك تبتسمين لحظة عبوري باب الغرفة، كلي أمل في أن أشاهد دموع الفرح تتساقط من عينيك، كلي شوق لذلك النور الذي يضيء من سواد عينيكِ يا امرأة الطباق.

كلي أمل في أن قدري سيصالحني أخيراً بعد سبعمائة وثلاثين يوماً قضيتها وحيداً ناقصاً منكِ يا نصفي.

وصلنا إلى المستشفى أخيراً. كنت أردد في داخلي شيئاً واحداً فقط: يا رب.

صعدنا إلى الطابق العشرين وتوجهنا إلى الممر الذي أشار هاري إليه بصمت، وهناك، أمام إحدى غرفه كانت تجلس امرأة على الأرض خائرة القوة، امرأة أدركت للوهلة الأولى أنني أعرفها..

كانت تبكي وتنحب، وفوق رأسها رجل وطبيب يحاولان تهدئتها.. كان الرجل يمسك يدها ويحثها على النهوض، ولكن المرأة تصرخ بألم يقطع شرايين قلبها:

_ ماتت ليلك!

استقرت تلك الكلمتين في أذني كالرصاصة، تسمرت في أرضي للحظات قليلة قبل أن أشعر بقلبي وهو يسقط من بين أضلعي، قبل أن أشعر بروحي تتوقف عن الضجيج لتسكن هي الأخرى، للحظات قليلة قبل أن أشعر بأن قواي تخور وتنسل من أطرافي، لأقع على الأرض لا حول لي ولا قوة..

لطالما حكمت عليكِ ظلماً يا ليلكي بأنك طفلة اختارت من قلبي دمية للعبث به، لطالما وافقت انفصامي حينما أقنعني بأنكِ ذنب عظيم وعلي الاستغفار منه، ولكنني أقولها الآن وبعد فوات الأوان: لو تعودي لارتكبتكِ من جديد يا ذنبي.

اختارك المرض يا طفلة قلبي كي يجبر قلبي أنا على المشيخ قبل أوانه، ذاك المرض أصاب جناحينا كليهما بحجر واحد ليسقطنا جريحين من سماء الحب، ليأخذك مني ويهديك للثرى، ويأخذني من نفسي ليقدمني للألم والوجع قرباناً.

لو أنك طلبت المؤازرة مني لأتيتك بكل جيوشي يا ليلك وانتصرنا عليه سوياً، ولكنك اخترت الحرب وحيدة، فازداد بذلك الطين بلة.

حاربتِ وقاومتِ بمفردكِ، حاربت حبكِ ومرضكِ، حاربتِ رغباتكِ و واجباتكِ، حاربتِ قلبكِ وعقلكِ، حاربتِ وحاربتِ إلى أن أسقطوكِ قتيلة ورقصوا شماتة على جثتكِ يا صغيرتي.

رجل غريب قد أشفق على حالكِ واعتنى بكِ وتزوجك ليمنحكِ الإقامة، فما بالكِ من رجل قد وهبك قلبه يا ليلك!؟

لو أنكِ اخترتني لمنحتكِ إقامة دائمة في قلبي وزودتك بجرعات حب وأمل.. كنا سننتصر بهذا على البلاء، ونحظى بحياة خالية من الألم.

لو يعيدك القدر إلي للحظات قليلة لعاتبتك على ما فعلتِ، لصرختُ باكياً في وجهكِ وأنبتكِ على هذا التصرف، ومن

ثم قلت لك: "الآن إذا أردت عودي من حيث أتيتِ، وموتي كما يحلو لكِ..

*

أفقت من غيبوبتي على رائحة المسك التي لطالما افتقدتها في ليالي الوحدة، أحسست للوهلة الأولى برئتيَّ تزهران من جديد، ولكن عقلي استرجع كل ما حصل قبل وقت..

نظرت لوجه هاري الذي كان يجلس بجواري على السرير، فسألته:

ـ أين ليلك؟

ولكنه لم يجب واسترسل في صمته.. كررت السؤال عليه، فأجابني صمته بنصف الإجابة، وأكملت دموعه باقيها..

صرخت في وجهه بألم:

ـ أين ليلك؟ أخبرني، قل شيئاً. أين ليلك؟

أجابني بصوت قد غلب عليه القهر:

ـ كانت هنا، ممددة على هذا السرير قبل ساعتين.

* * *

(١٢)

الموت دينٌ لا يدفعه المرء سوى مرة واحدة

وليام شكسبير

مضت السنوات علي سريعاً، ولكنها لم تخفف من أثقالها عني حتى الآن.. ستبقى تلك الندبة موشومة أيسر صدري مهما مر عليها من عقود.

لم يشأ القدر أن يخرجني من تلك القصة معافى؛ خرجت منها مكسراً، محطماً؛ خرجت منها *أنزف خذلاناً وأسى.*

طريدٌ شريدٌ حزينٌ من دونكِ، ولا أجد عزاء لي سوى وجه طفلتي الصغيرة "ليلك" ذات السنوات الثلاث.

لو أنك كنت أمها يا ليلك، لو أنها تحمل شيئاً من ذاك السحر الأسود في عينيها أو بعضاً من ملامح وجهك، لو أنكِ شاركتِني في إنجابها يا ليلك.

ممتلئ بالقهر أنا، سبحان من قهر قلبي بانتزاعك مني، سبحان من قهر عباده بالموت!

تجلس زوجتي فتون بجواري وهي تقرأ إحدى الروايات للكاتب "ويليام شكسبير"؛ تذكرت أحد أقواله فوراً إذ أنه قال في قصيدة له أنه لا يستطيع أن يمنح حبيبته حياة أبدية، ولكنه يستطيع منحها خلوداً في قصائده لتبقى حية على مر العصور للأبد؛ ولهذا السبب قررت كتابتكِ ومنحك خلوداً بين أوراقي يا ليليك.

تركت لك بين سطوري هذه دمعات لا يعلم عددها إلا الله، تركت لك بين كلماتي قهراً لو عُرض على الجبال حملها لرفضت خشية السقوط.

رضيت بما كتب الله لي وآمنت بقدره، ولكنك ذهبت باكراً جداً يا ليلك، ذهبت بعيداً عني إلى حيث أن روحي باتت حبيسة داخل صدري، أريد انتزاعها لتلحق بروحك، ولكنني لا أستطيع فعل المستحيل.

بيني وبينك سبع سموات، وذرات لا تحصى من الثرى.. بيني وبينك يا شتاء قلبي غيوم تمنعت عن الهطول على حقول السعادة مكتفية فقط بترهيبي بصوت رعدها وبوميض برقها..

بيني وبينك يا ليلك ألف زهرة تبكي على فقدان شقيقة من شقيقاتها.

بيني وبينك يا حبيبتي ألف قبلة ما زالت مبعثرة هناك على أشلاء الأزقة القديمة كالركام.

تعرَّت حبيبة قلبي من أنفاسها وصارت شفتاها للأرض نبيذاً، تعرت طفلة قلبي من ثوبها فأثملت الثرى من خمرة جسدها.

أوليست الأموات تسمع حديثنا؟

ظمآن أنا، هاتي كؤوس الحب لعل الحزن يصحو من خمرة شفتيكِ، ظمآن أنا يا خمري ومالي من نديم غير أطياف شفتيكِ السقاة.

وحيد أنا من بعدك يا وحيدتي سأرتشف مرارة القهر من كؤوس الحياة.

تعالي واغسلي بجسدكِ الطاهر كل دعارات الألم تلك، تعالي واغسلي عني صدأ الأيام والآلام.

تعالي، أريد أن أطفأ النار التي تستعر أيسر صدري..

تعالي، فساعة العمر متوقفة، وعقاربها من الألم مخمورة، تعالي فعقارب الحياة تترنح واقفة لا قدرة لها على السير قدماً..

رحلت ليلك، فذبلت ورود الحب معها..

رحلت وتركتني وحيداً وضعيفاً لا أقوى على مجابهة تلك العاصفة.. هاجم القحط بساتين قلبي وسنين عجافي بدأت لحظة رحيلكِ.

موتك هو الصدمة التي يعجز قلبي عن تصديقها يا ليلك، الجرح الوحيد الذي لن يخيطه طبيب والوجع الأكبر الموشوم على صدري.

أنت خسارتي الكبرى، أنت خيبة أملي التي ستدمي قلبي قهراً ما دمت حياً.

جاءك الموت على حين غرة فسرقك من بين أحضاني بقسوة.. سرقك ورمى بك إلى التراب ليضمك الآخر داخل صدره.

رحلتِ باكراً وتركت خلفك صدراً يلتهب ألماً على فقدكِ في وقت كان لا يزال يرتوي من حبك.. رحلتِ وتركت قلباً صار من بعدك مهجوراً تغطي نوافذه حشائش الحزن وأشجار الألم.

هجرتِ قلبي، فهنيئاً لقبر يحتويك، هنيئاً لكفن يلمس جسدكِ، هنيئاً للثرى الذي يغطيكِ، هنيئاً لهم، ويا حسرة علي.

ليتني أستطيع منحك ما تبقى من عمري ينقصه يوماً أعيشه معكِ، وبعدها أرقد مكانك بلا ألم.

لن أنساكِ مهما عشت سنين من بعدك، سيبقى اسمك عالقاً بقلبي ، وسيبقى قلبي ينبض لك وباسمك حباً وألماً.

سأكمل ما بقي من أيامي، وروحي ستبقى منتظرة لتعانق روحك في جنة ستنسيني ألم فراقك.

*

كانت لحظة فراقنا الأخيرة مختلفة جداً عن الوداع الذي سبقه، ففي الأخيرة لم يكن بك نبض أشعر بعذوبة لحنه، ولم يكن بك روح كي تنطقي بصوتك آخر كلمات الوداع.

في لحظة وداعنا الأخير لم أستطع النظر لعينيكِ طويلاً وسد فراغات قلبي بسحرهما فقد كانت عيناك مطفأة نورها، وما النور الذي أبصرت دروبي به إلا من ذلك السواد.

أمسكت يدك، تلك اليد التي لطالما بعثت الدفء في روحي كانت باردة جداً.

ارتميت على صدركِ وبكيت بحرقة، بكيت بقهر، بكيت بألم، فشعور الفقد الدائم أكبر وأقسى من أن نبكيه بعبرات.

لو أنك أخبرتني عن مرضك لحاربناه بحبنا معاً يا ليلك، لشددت على يديك بكل ما أوتيت من حب، كنت

لأخبرتك أن فقدك هو مرضي، لأخبرتك بأنك أقوى من أن تستسلمي أمام ذلك الوباء.

كنت لن أفتح لك للذهاب باب، ولرضيت بحالكِ تلك، وتزوجت منك على الرغم من كل شيء، وقضيت ما بقي من عمرك معكِ.

لو أنكِ ما خبئتِ مرضك عني يا ليلك، لأمسكت يدك ووضعتها على قلبي، ونظرت لعينيكِ وأخبرتكِ بكل صدق أن هذا القلب راضٍ بكِ، ويحبكِ كما أنتِ.

* * *

تمَّت

٢٠١٩/٢/١٤م

نور الدين سليمان

للتواصل مع الكاتب:

Facebook

Nour Solyman

Instagram

nour_solyman11

كما أنتِ

فاجعتي يا ليلك هي أنني حاربتُ بكل ما أوتيت من ضعف وقوة، حاربت بكل ما استطعت من حب ومشاعر، حاربت بكل ما أوتيت من طاقة، ولهذا السبب كانت الخسارة كبيرة..

أصبحتُ لا أقدر المواصلة على نفس الوتيرة، وضعت فاصلة وبدأت السير من جديد، ولكن من دون أن تكون لحياتي معنى بعد تلك الفاصلة، فبعدها رُفعت الأقلام وجَفّت الصحف .. دفعت بأوراقي كلها يا ليلك، خسرتُ جيوشي.. أصبحت بلا جيشٍ أحارب به، وبلا وطن أنتمي إليه، واستسلمت لكل ما يريد أن يختلجني من شعور.. لم يعد في عينيّ الماء ماءً ولا العيشُ عيشاً ..

زهدتُ في فكرة الحب، وأذعنتُ لذلّ الاستقرار؛ سأتزوج قريباً وسأصبح مثلهم، خاضعاً لقوانين العشيرة.. أخشى ألّا أجدَ استقراري في ذلك الزواج كما يقولون.. أخشى أن تصبح أحلامي كوابيساً تخنقني في نومي وفي يقظتي، أخشى أن يصبح الشرفُ ضعفاً، والإشراق غياباً؛ أخشى أن تصبح الحياة متاهات لا بداية ولا نهاية لها.. أخشى أن تنعدم المشاعر إلى الأبد، ويصير الحب جنساً ..

instagram:

nour_solyman11

facebook:

Nour Solyman